رواية

إيكتور أغيلار كامين

سرقة أدبيَّة

ترجمة:
حسن بوتكى

مكتبة 1224

سرقة أدبيَّة

إيكتور أغيلار كامين

Author: Héctor Aguilar Camín

Plagio

© Copyright

Translated from Spanish by:
Hassan Boutakka

ترجمها عن الإسبانية:
حسن بوتكى

Book Design:
Sarwar Murad

الإخراج الفني:
سرور مراد

Book Cover Design:
Markly
www.markly.net

تصميم الغلاف:
ماركلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

25 6 2023

الطبعة الأولى | سبتمبر 2022
ISBN: 978-9921-712-58-2
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية – دولة الكويت:
1021-2022

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر
© Alkhan Publishing & Distribution

+965 99462291 / +965 51088000
@DarAlkhan_kw
info@daralkhan.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

مكتبة 1224

رواية

سرقة أدبيَّة

إيكتور أغيلار كامين

ترجمة

حسن بوتكى

2022

Author: Héctor Aguilar Camín

Plagio

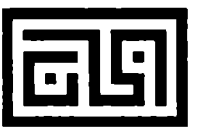

2022

كل ما يُحكى هنا حقيقيّ،
باستثناء أسماء الأعلام، التي هي أيضًا مزيَّفة.

السرقة الأدبيَّة أخلصُ أشكال الإعجاب.

خورخي لويس كونراد

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذات اثنين، أعلنوا أنني فزت بجائزة مارتين لويس غوثمان، "من الكتَّاب إلى الكتَّاب".

يوم الثلاثاء، اتُهمت في الصحافة بأنني سرقت بعض المقالات الصحفية.

يوم الخميس، اتُهمت بأنني سرقت أيضًا موضوع روايتي الفائزة.

وفي يوم الاثنين من الأسبوع الموالي، وقَّع تسعة وسبعون كاتبًا رسالة ضدي. صباح ذلك اليوم بالذات، اكتشفتُ أن زوجتي هي التي قامت بالتنسيق السرّي بين أولئك الذين اتهموني، هي المخبرة الطائشة التي أعلمت الكاتب الذي فضح انتحالي للمقالات وللرواية، والمحرّض الحقيقيّ على كل ذلك، ولهذا السبب سمّيته في هذا الكتاب فولتير.

طالب الموقعون على الرسالة بأن أعيد الجائزة وأن أستقيل من منصبي في الجامعة. (كنت مديرًا للشؤون الثقافية في الجامعة. إمبراطورية صغيرة).

يوم الأربعاء الموالي، بعد محادثة مع صديقي المهندس

ورئيس الجامعة -لم يعد الآن صديقي- قدمتُ استقالتي من منصبي في الجامعة. وتنازلت أيضًا عن جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب.

زوجتي، التي وظَّفتُها مذيعة بإذاعة الجامعة، لم تحضر إلى عملها تلك الليلة حتى لا تضطر إلى قراءة خبر مغادرتي، بحسب قولها. لكنني علمت شيئًا آخر في نفس الليلة.

يوم الاثنين من الأسبوع الموالي، فاجأتُ زوجتي وهي تجري مكالمة مع فولتير. كنتُ كلفتُ من يتجسس عليها، مما أسفر عن عواقب وخيمة.

لم يسعني سوى التجسس عليها طيلة الأيام الموالية، الثلاثاء والأربعاء، مما أسفر أيضًا عن عواقب وخيمة.

يوم الخميس، أصبح فولتير ميِّتًا في شقته، مطعونًا بخنجر. انتشر الخبر بسرعة على إذاعة الجامعة. ذلك اليوم، كنا، أنا وزوجتي، نتناول وجبة الإفطار معًا، كالعادة. عندما سمعَتْ الخبر، نظرَتْ إليَّ فَزِعة. في ذلك الصباح غادرَت البيت وبلَّغت عني.

يوم الجمعة، زارتني الشرطة في شكل المخبر سالادريغاس. في النهاية، كشف سالادريغاس كل شيء. بل كشف أيضًا، بطريقته الخاصة، من كنت أنا.

كلُّ هذا يتطلّب تفسيرًا. هذا ما ستقرؤونه.

كل سطر مكتوب أعلاه يخفي قصة صغيرة، والسطر الأخيرُ الخاتمة. وقد حاولت أن أحكي تلك النهاية بدون لفٍّ ولا ابتذال.

سأسير جزءًا بجزءٍ.

١

ذات اثنين، أعلنوا أنني فزت بجائزة مارتين لويس غوثمان، "من الكتّاب إلى الكتّاب".

لا أحد يعرف خارج المكسيك من يكون مارتين لويس غوثمان ولا أهمية الجائزة التي تحمل اسمه. وقد توصل من اخترعوها إلى صيغة طريفة بقولهم إنها "جائزة من الكُتّاب إلى الكتّاب"، وهذا أمر غريبٌ في بلد تأتي فيه الجوائز كلها، للكتّاب ولغير الكتّاب، من الحكومة. الشيء المضحك في الجائزة التي أتحدث عنها هو أن أحدًا ما حصل على أموال سرّيّة من الحكومة لخلق جائزة من الكُتّاب إلى الكُتّاب، مستقلّة عن الحكومة: "تاج محل" يحاكي الأصل. أعرف جيدًا من فعل ذلك وكيف، سأقولها لاحقًا. لكن نجاحها كان كبيرًا، لدرجة أنه في اللحظة التي بدأتْ فيها هذه الحكاية، لم تكن هناك جائزة مرموقة في الجمهورية أكثر من جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتّاب إلى الكتّاب.

كثيرًا ما كانت تهمني الشهرة أكثر من الأدب، والسلطة الثقافية أكثر من الثقافة، والنساء من لحم وعظم أكثر من القرّاء

المحتملين. كنت منذ فترة شبابي أمتلك القدرة على الكتابة بدقّة، وقراءة نوايا الآخرين وكأنهم يحملونها مكتوبة على وجوههم. إنني ورثت موهبة التركيب والوضوح، لا موهبة الإلهام والجمال. لكنّي أدرك، للوهلة الأولى، عظمة كتّاب آخرين، والعبقرية التي أفتقر إليها، وأحسد الآخرين عليها مثلما يحسد المخصيُّ السلاطين على حريمهم.

بدأتُ الكتابة بدافع الحسد على ما كنتُ أقرؤه، وأنا أعلم منذ البداية أنني لا أستطيع كتابة شيءٍ مثله. بدأت الكتابة بنقل مقاطع كانت تُبهرني، ومنها مقطع لمارتين لويس غوثمان نفسه، حول تخيُّل الطلقات الرصاصية. كان ذلك أول ما نشرتُه باسمي في مجلة مدرستي الثانوية، وهو يفسّر، أو يساعد في تفسير، ضعفي وحرفتي. بتغييري لهذا المقطع وإعادة كتابته، انطلقت مسيرتي لأصبح الكاتب الذي هو أنا الآن: كاتب منتحِلٌ. تلك كانت سرقتي التأسيسية، وكانت سليلة الإعجاب، وليس العار. العار جاء لاحقًا، مع النجاح.

الإعجاب حسدٌ نبيلٌ. في الواقع، إنه حسد في اتجاه معاكس، وإن كان الحسد المعاكس يمكن أن يؤدي إلى التحقير والازدراء. بينما كنت أنقل مقاطع لكتّاب يبهرونني، يتولّد داخلي، من ذلك الضوء الذي تُشعُّه نصوصهم، غرورٌ باكتشاف عيوبها وغوايةُ تغيير ما كنت أنقله. كنت أغيِّر هنا وهناك، بخجل في البداية، ثم بوقاحة فيما بعد، إلى أن أحصل في النهاية على نص يكون هو الذي يُبهرني، لكن بعد أن فككته

وأعدت صياغته. هناك حيث يكتب المؤلف أو المترجم: "كنت أنام مبكّرًا لفترة طويلة"، أكتب أنا: "كنت أنام مبكرًا منذ بعض الوقت، منذ أن بدأت أحلم" ، وأواصل النقل، والتصحيح وتفكيك المقطع الذي أحببته، أنسبه إلى نفسي وأنا أخونه، لدرجة أني أفقد أثناء ذلك أيّ إمكانية لمعرفة ما الذي كتبه الكاتب الذي أبهرني في ذلك المقطع، وما الذي وضعته أنا.

هكذا أصبحت كاتبًا: أنقل بتواضعٍ ما أبهرني وأعيد كتابته بتكبُّر.

لم يذهلني قط دون كيخوته، لكنني نقلت بدايته عدة مرات لعلي أصاب بعدوى عظمتها المشهورة. بعد أن نقلتها عدة مرات، فهمت أن هذه العظمة ترجع قبل كل شيء إلى تناسقها الإيقاعي. كانت الصفحة الأولى من دون كيخوته، كما هي، غير مفهومة من الناحية المعجمية، على الأقل بالنسبة لي: كنت أتيه كليًّا في معاني كلماتها. لكن موسيقاها جذابة ومطربة، مثل رقصة رومبا الفلامنكو. عبارة كون الشخصية لها مبارزات وخسائر، إذا ترجمت إلى معناها الحقيقيّ، تعني أنه كان يأكل البيض مع لحم الخنزير المقدّد، لكن هذه العبارة لا تُحدث نفس الإيقاع، ليس لها السحر الرنان والكئيب للمبارزات والخسائر.

بحسب فهمي لهذه الأشياء من النصوص التي أنقلها، تفقد هذه النصوص العظمة أمامي أو تكتسبها، وغالبًا ما يحصل

الشيئان معًا. وكنت أنسبها لنفسي دون حياء، وأجعلها نصوصي في صيغتي المعدلة، دون أيّ احترام، في نهاية المطاف، لِمَا قرأته وأنا جاثٍ على ركبتيَّ، في أول الأمر. صرت كافرًا بمعجزات اللغة، أولا غير محترم لها، ثم جانيًا عليها، ثم سارقًا، لكن لست غبيًّا.

غيرت الصفحة الأولى من رواية دون كيخوته بما يكفي لأحولها إلى فصل من روايتي الأولى التي حازت على جائزة: قصة رجل مضطهد، مولع بالمسلسلات التليفزيونية حدّ الجنون، لدرجة أنه قرّر يومًا أن يبدأ حياة بطل مسلسل تليفزيوني، وعمره خمسة وخمسون عامًا. كان يرتدي البدلات ويتأنّق كما يُشاهد على شاشة التلفزيون، ويتجول في المدينة حيث كان يقطن وهو يمثل دور العاشق أمام النساء الجميلات اللائي يلتقي بهن في الشوارع أو المطاعم العصرية التي كان يُطرد منها دون أيّ مراعاة، وحيث كان يلقي خطابات طويلة عن الحب، تعلمها في المسلسلات التليفزيونية، تثير ضحك النوادل، وفضول الذين يسمعونها، وكانوا كثيرين ومتنوعين، وذوي طبيعة خيالية مثله.

استطاع الجميع أن يفهم أن روايتي منسوجة على منوال رواية دون كيخوته، ولكن لم يميّز أحد قط، حتى أنا، الجمل الحرفية العديدة التي سرقتها من ثيربانتس والأخرى، والتي لا تعد ولا تحصى أيضًا، التي أضفتها مشوِّهًا العبارات الأصلية، جاعلًا إياها، كما يقول علماء الاقتصاد، ذات قيمة آنيَّة، بحيث

إن المقاطع التي كانت فيها روايات الفروسية، تقابل الآن المسلسلات التليفزيونية، وحيث كانت فنادقُ ونُزُلٌ رخيصة الثمن، نجد الآن فنادق مصنفة من خمس نجوم ونجمتين، وحيث يُتحدث عن التوق إلى الفروسية، يُتحدّثُ الآن عن حنين لحب جريء يمتد إلى ما بعد الموت.

يمكنني أن أنقل هنا مقطعًا من تلك الرواية لتوضيح الإجراء، ووضع الاقتباسات الحرفية التي لم يكتشفها أحدٌ بين مزدوجتين، لكن وظيفتي ليست هي وضع علامات الاقتباس، بل حذفها.

كنت أدخل في الكتب بنفس السهولة التي أدخل بها إلى الناس. أستولي على تعاطف الآخرين أو حبهم أو صداقتهم، بنفس السهولة وبالكيمياء المماثلة التي أستولي بها على الكتب. كنت أستطيع قراءة الآخرين وكأنهم مكتوبون. أقترب منهم بجدارة واستعلاء إذ، كما يحصل لي مع الكُتَّاب، لا أجد عظَمة بعيدة المنال إلا في قلّة قليلة منهم. كنت محظوظًا، خاصة مع النساء، وهو حظٌّ بَنَيتُه، لأنّهن، عدا بعض الاستثناءات الكارثية، لا يأتين إليَّ بمحض إرادتهن، مثلما يحصل مع صديقي العاشق ريكاردو دي لا ثيردا؛ بل تجذبهنّ إليَّ حنكتي في الاقتراب منهن، وإطراؤهن، وتجاهلهن، وإضحاكهن، وانسحابي، وإصراري، ووقوفي في يوم من الأيام، دون التصريح بأي شيء، أمام أقدامهن وانتظاري دون طلب شيء، ورغبتي دون مطالبة بشيء، واضعًا نفسي رهن إشارة غير مشروطة، كثيرًا ما

تؤدي عاجلًا وليس آجلًا إلى كسب ثقتهنّ وبوحهنّ وتواطئهن وصداقتهنّ الدائمة أو إلى السرير، بحسب الأعمار.

كنتُ أُعجب بما يكتبه الكُتاب، لا بسِيَر حياتهم المعذبة، التي مزقها الكحول أو العبقرية أو قلّة ذات اليد. علمتُ منذ البداية أنني لا أريد أن أصبح كاتبًا شقيًّا في حياته وسعيدًا في كتُبه، واجتهدت من أجل ذلك، لم أتوهم قط أنني سأعيش من الكتابة، قررت منذ البداية أن أكون بنفسي راعيًا لنفسي، فظلَلْت دائمًا متحيّنًا لفرص الكسب والتأثير والسلطة التي يمنحها لي هذا المجال.

هكذا، قبل أن أبدأ دراسة الآداب في الجامعة، اشتغلت محرّرًا مساعدًا في الصفحة الثقافية لجريدة الإمبارثيال "El Imparcial"، أتقاضى راتبًا زهيدًا، كنت أستطيع بيع نسخ من الكتب التي كانت تصل بالكيلوغرامات إلى الصفحة الثقافية للجريدة. وتلك هي الصفة التي مكنتني من التعامل مع دونيا مارثيلينا دي لا أُو، الزوجة النشيطة للناقد الأدبي الدائم أنطونيو ماتورانا، وهو صحافي قديم، يُحسن القراءة والشرب، ويكتب كل يوم، بما في ذلك أيام السبت والأحد، متابعات عن المستجدّات الأدبية. كان يفعل ذلك بإلهام وجدارة غير عاديين، في زمن كانت فيه صفحات الثقافة في الصحف شيئًا غريبًا.

كان ماتورانا مرتزقًا، يتلقى تعويضات من الناشرين لقاء مدحه لكتبٍ أو ذَمِّه لأخرى. لكنه كان يخلط بنباهة غريبة

تكليفه مقابل أجرٍ مع اختياراته المفضلة. كانت وحشيةُ هجماتِه وبلاغتُها تجعل امتداحاته قابلة للتصديق. نصفها يكون تكليفًا والنصف الآخر مبنيًّا على قناعته كقارئ، لذلك لم يكن سخطه ولا رضاه متوقعين، وغالبًا ما يكونان متناقضين، ومن ثم مفاجئين، لكن نتيجتهما تشترك في شيء يشبه كثيرًا الحرية الخالصة. وقد لعبت مارثيلينا دورًا رئيسيًا في ذلك التوازن لأنها كانت هي التي تكتب جزءًا مهمًّا من تلك المتابعات، وتدير الاختيارات، وتصمم ترتيب النشر وفق تجميع فنّيٍّ يوثر المفاجأة على المنطق.

اكتشفتُ سر التأليف المشترك لتلك النصوص والتدبير العسكري المحبوب لمارثيلينا للامتيازات النقدية لزوجها، منذ المرة الأولى التي دخلتْ فيها -وهي امرأة في الأربعين- غرفة التحرير، ذات ساعة ركود من صباح يوم اثنين، مثل عاصفة، ومعها أخبار الأسبوع الأدبيّة السبعة ترفرف في يدها مثل مروحة. أخبرتني في عجلة من أمرها، ودون توقف، عن خبر كل يوم. وعندما أنهت حديثها، أمرتني:

- كرِّر لي ما قلته لك للتو.

كسبتُ ابتسامتها الفَرِحة والمُتعجبة حين كرّرتُ بالضبط الأيام التي أخبرتني بها، والمتابعة المطابقة لكل يوم. قالت لي:

- سوف يكون لك شأن عظيم. والآن، إلى صالون منزلي. تعال لتناول القهوة يوم الجمعة في الساعة السادسة.

أثناء المحادثة على مائدة الطعام يوم الجمعة ذاك، منذ خمسة وثلاثين عامًا، سمعت لأول مرة عن جائزة مارتين لويس غوثمان من الكُتَّاب إلى الكتَّاب. أدخلتني مارثيلينا فور وصولي، كما لو كنت ابنها بالتعميد، عبر ممرٍّ طويل ينتهي إلى قاعة كبيرة، كانت في نفس الوقت صالونًا ومكتبًا ومكتبة. كان حول المائدة زوجها، الناقد أنطونيو ماتورانا، الذي كان يصرخ دون قيود، ورجلٌ شابٌّ أصلعُ، عرفت في ما بعد، وأنا لا أكاد أصدق، أنه الرئيس المنتخب للمكسيك. تم اختياره قبل أسبوعين، في انتخابات عاصفة كانت تمزق الجمهورية، لكنه كان يستمع بهدوء إلى عرض يقدّمه ماتورانا حول شيخ قبيلة مكسيكي شهير، هو غونثالو ن. سانتوس، صاحب العبارة المخيفة الخالدة: "الأخلاق شجرة تعطي ثمارًا أو لا تصلح لشيء".

حيَّاني الرئيس المنتخب ملوِّحًا بيده، وكأنني ابن أخيه أو أخته، وماتورانا بنظرة حبّ، وكأنني ابنه، بينما مرّرتني مارثيلينا عبر جهة من المائدة، وأخذتني للجلوس إلى مكتب ماتورانا، في الجزء الخلفي من الغرفة، ووضعَتْ أمامي سلة بها بسكويت مقرمش، وكوبًا من الخزف، وإبريقًا فضيًّا من القهوة. كان بطن الإبريق الفضّيّ ساخنًا بحيث كاد أن يحرق أصابعي.

لن أثقل على أحد بوصف ذلك المشهد الفريد، لأن الإسهاب فيه لن يؤدي إلا إلى عدم تصديق من القارئ. إن الواقع يتجاوز الخيال بكثير، ولكي تكون للحكايات مصداقية،

عليها أن تلمّح فقط إلى الواقع لا أن تنسخه، وذلك ما أفعله هنا. أقول فقط إنه، في نهاية المحادثة بعد الطعام، قام الرئيس المنتخب من مكانه وقال لمارثيلينا وماتورانا:

- موضوع جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكُتّاب إلى الكُتّاب، عُدّاهُ منتهيًا. سنبتكر في هذا أيضًا.

ثم ودعني ملوِّحًا لي بيده وكأنني ابن أخيه أو أخته، وودع ماتورانا بعناق طويل، وكأنّه والده. ومارثيلينا بقبلة على خدها.

كان الرئيس المنتخب طويل القامة مما اضطر مارثيلينا للوقوف على أطراف أصابعها للوصول إليه، فمكنني ذلك من رؤية أردافها الكمثرية المدهشة، والمرسومة تحت تنورتها المثنية، تنورة زرقاء ذات طيّات متمايلة تكشف أيضًا عن ساقي راقصة باليه، ساقين لا نظير لهما عندي، بالنظر إلى سنّها، وهي تكبرني فقط بعشرين سنة.

إن الهندسة الدقيقة التي تستعملها مارثيلينا وماتورانا للحصول على الاعتمادات المادية، وفي الوقت نفسه خلق جائزة من الكُتّاب إلى الكُتّاب، تخفي تفاصيلَ أجهلها عن تلاعبهما المالي، أما انتشار صيت الجائزة فأعرف كل تفاصيله. أنشأت مارثيلينا وماتورانا جمعية مدنية لـ"أصدقاء الكِتاب"، منحَها الرئيس دعمًا ماديًّا سرّيًا ضخمًا، وكانا يحلبان فوائدها من أجل تأسيس جائزة. كان مبلغ الجائزة هزيلًا في البداية، وكانا يقولان إنهما يدفعانه من مالهما الخاص، وبعد

ذلك -كانا يقولان- من تبرّعات خيرية لبعض المقاولين، وهي التي تزيد المبلغ كل سنة.

كل سنة، يتم الإعلان عن مبلغ الجائزة في مؤتمر صحفي، وبعد أسبوعين يتم الإعلان عن قرار لجنة التحكيم. هذه اللجنة كان يرأسها دائمًا ماتورانا، لكنه هو ومارثيلينا يشكلانها، بروح تعدّدية حقيقية فقط من كتاب مرموقين، وبعيدًا عن أيّ شكل من أشكال المحسوبية أو الصداقة، وضد أيّ محاولة للتلاعب في التصويت أو توجيه النتائج.

يهيئان الطاولة ويتركان اللاعبين يلعبون.

كان ماتورانا ومارثيلينا خبيرين في التلاعب، لكنهما كانا قارئين كبيرين وحقيقيّين. لم يكونا يسمحان لأي كتاب يشكّان بشأن جودته أن يمرّ إلى لجنة التحكيم، لكنّهما كثيرًا ما يسمحان بمرور كُتب سبق أن سحقها ماتورانا بانتقاداته نزولًا عند طلب جهة ما، على الرغم من أنه في قرارة نفسه معجب بها أيّما إعجاب، وكان ذلك يضفي على اختيار العناوين المقترحة نفحة من النزاهة الحقيقية. فازت بالجائزة عدة مرات كتبٌ انتقدها ماتورانا بوحشيّة كبيرة، مما كان يزيد من مكانة مداولات لجنة التحكيم باعتبارها لا تخضع لأي وعود أو ترتيبات مسبقة. وفي كثير من الأحيان، فاجأتُ مارثيلينا وماتورانا وهما يكادان يطيران من الفرح لرؤيتهما كتابًا أعجبا به سرًّا يفوز بالجائزة، رغم كونهما شتَماه علنًا.

وسرعان ما استطاعا أن يرسّخا قاعدة كونِ تبرعات الجائزة مجهولة، وأن يصدّقهما الناس. وبذلك تمكّنا من الحصول على مبالغ متزايدة باستمرار من أموال الجمعية، من أجل ثروتهما الخاصة، ولجعل الجائزة أكثر فخامة ومرغوبًا فيها، ليس فقط نظرًا لقيمتها الاعتبارية، بل المادية أيضًا. فقيمة الجوائز تنمو بمصداقيتها وتتضاعف كذلك حسب مبلغها المالي. كان ذلك هو حال جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكُتَّاب إلى الكُتَّاب، التي انتهى بها الأمر أن أصبحت أرقى الجوائز وأكثرها قيمة مالية في المكسيك.

مات ماتورانا بعد اثنين وعشرين عامًا من إنشاء جائزة مارتين لويس غوثمان، وهذا الأخير كان كاتبًا بارزًا ومعلمًا لماتورانا. ورثت مارثيلينا المال والجائزة وآليتها. اختفى توقيع ماتورانا من الصحف، لكن مارثيلينا تمكنت من الاحتفاظ بعموده الذي يحمل نفس العنوان، ليتيراليا "Literalia"، والترحيب فيه بالنقاد الشباب، الذين لم يكونوا يوقّعون باسمها، ولكنها كانت تختارهم بعناية لا تشوبها شائبة، واستمرت تُنَمّي العمودَ إلى أن أعادت له بفضل تنوع أذواق الكتَّاب واختياراتهم وقعَهُ المدهش وقدرته على المفاجأة. أنا كنت واحدًا من هؤلاء النقاد المجهولين قبل وفاة ماتورانا، عندما لم يعد بإمكاني الكتابة إنما الإملاء بشكل سيّء، وكانت مارثيلينا بحاجة إلى كاتب يحافظ على سر مشاركتها في كتابة العمود الذي يحمل اسم زوجها، وهو سرٌّ كبيرٌ. كنت متواطئًا معها في ذلك حتى

وفاة ماتورانا ثم ساعدتُها فيما بعد في إيجاد الحل الموضّح أعلاه، للحفاظ على العمود من دون توقيع ماتورانا، وشيئًا فشيئًا، من دون تأليف مارثيلينا السرّي، وهي التي كانت تعاني من مرض انتفاخ الرئة.

آنذاك، كانت جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكُتَّاب إلى الكُتَّاب، الحدث الأدبي الهام في كل سنة. قبل وفاة مارثيلينا بعام واحد، انتابتها، ولأول مرة في تاريخ الجائزة، نزوةُ فرضِ روايةٍ وجعلها هي الفائزة. كانت تلك الرواية من تأليفي. تمكنت مارثيلينا من فرض قرارها، إذ لم يجرؤ أحد، وهي في ذلك المستوى، على تحدي سلطتها الأم في فضاء الجائزة، ولأنها حكمت بصدق على أن روايتي تستحق الجائزة.

روايتي نعم، أما أنا فلا، كما قد تكون مارثيلينا اكتشفت في الأيام الأخيرة من حياتها، خاصة أيام العاصفة التي حلت على جائزتها وعليَّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢

يوم الثلاثاء، اتُّهمت في الصحافة بأنني انتحلت بعض المقالات الصحفية.

كانت مارثيلينا أول من اتصل بي يوم الثلاثاء المشؤوم، عندما نُشر اتهامي بالانتحال في ركن الأخبار الثقافيّة، التي تكون دائمًا في الصفحات الداخلية للصحف.

وكان ذلك، هذه المرة، في جريدة الإمبارثيال.

لم تكن الإمبارثيال أفضل صحيفة في البلاد، ولا أكثرها نفوذًا، لكنها كانت الأكثر قتالية والأقوى في عالم الثقافة الزئبقي. كانت قويّة، لا سيما في الوسط الجامعي، مملكتي بالتفويض، حيث يبلغ نفوذها أبعادًا احتكارية. كانت صحيفة يساريّة قديمة قِدَم اليسار الذي أسسها بأموال حكومية قصد النضال من أجل قضايا تنتمي إلى القرن الماضي، وخاسرة في كل مكان إلا على صفحاتها.

– هذا عار...

قالت مارثيلينا، التي كانت تكره الجريدة التي وضعت فيها ثروتها.

- أنت لا يمكن أن تكون قد فعلت هذا الذي يتهمونك به، حتى لو أثبتوا أنك فعلته. حتى لو أثبتوا عليك ذلك! هل تفهمني؟

عند هذه النقطة اختنقَتْ بفعل انتفاخ رئتها. ثم تلا ذلك سعالٌ وأزيزٌ، لو كنت في سياق آخر لكسَّر روحي، لا في ذلك السياق الذي لم يترك مجالًا إلا لحالة الاستنفار. سمعت مارثيلينا تغرق، وهي المغرمة بي بشكل أعمى، إلى أن التقطت أنفاسها وتمكنت من سماع نفيي الغاضب لتلك الأحداث.

- ما دمنا سننكر، ينبغي الإنكار بسخط.

كنا في موسم التفاوض مع الصحف على ميزانيات إشهارات الجامعة. وكنت المكلف بذلك. وفي تلك الأيام، كما يحصل كل سنة، كنت أخوض معارك ضارية ضد جشع أصحاب الصحف المرشحة. كانوا يكرهونني لأنهم لا يستطيعون خداعي. كنت أعرف الصحف معرفة جيّدة، أعرف دائرة انتشارها وقرّاءها وحيلها التجارية، لأنني خلال سنوات كنت على الجانب الآخر من الطاولة أفاوض من أجل الصحف التي كنت أشتغل بها، ومنها جريدة الإمبارثيال، الأم التي تعلمت منها وقاحتي الصحافية، ونقطة انطلاق مسيرتي المهنية المزدوجة ككاتب وزعيم ثقافي.

خلال الفترة التي أمضيتها في الإمبارثيال، اكتسبت المعرفة والنفوذ اللازمين لأولئك الذين يريدون -مثلي- ليس فقط ممارسة الصحافة والكتابة، بل بناء حصن يحميهم من مآسي السوق الأدبيّة، ومن ضعف القدرة الشرائية للزبائن الثقافيين الذين هم مجموعة من قبائل محلية تقاتل حتى الموت من أجل الميزانيات الصغيرة والمساحات الصغيرة. حتى الكتّاب المكرَّسون كانوا يعانون، تمامًا مثلما يعاني الجميع، من اللدغات التي يتلقونها في المتابعات الأدبيّة المنشورة في الصحف والمجلات التي لا يقرؤها أحد، والتي لا تتداول إلا في دائرة ضيقة مغرورة بنفسها وغير راضية عن كل ما يخرج عن المديح الذري، والإعجاب اللا مشروط.

ناوَرْتُ طيلة يوم الثلاثاء ذاك من أجل منع مرور طعنة الإمبارثيال إلى الصحف الأخرى. سارعت إلى منحهم، في ساعات قليلة، الميزانيات التعسفية التي رفضتها لهم خلال أسابيع. خلال فترة الصباح كلها والمساء كله، أثناء مقابلات متتالية، قمت بتوزيع جزء مهم من الميزانية الثقافية للجامعة، والتي لم تكن شيئًا يستهان به.

كانت الجامعة تتمتع بامتياز خاص يمَكِّنها من الاستفادة بسخاء من المال العام دون أن تخضع لضرائب السلطات، لأنها كانت مستقلة، أي غير خاضعة للمساءلة، لأسباب تاريخية سأشرحها لاحقًا أو لن أشرحها. لكن تنازلاتي والرشاوى التي كنت أقدمها، كما كانوا يسمون ذلك في "نويبا إسبانيا" (إسبانيا

الجديدة)، لم تُجْدِ نفعًا. لقد اشتمت الصحف رائحة الدم الذي يسيل من جانبي، فأحضرت براميلها لتملأها. كنت مدينًا لها بالكثير من المفاوضات السابقة. لم يكن أحد يوزع مالًا كثيرًا مثلي، ولم يكونوا يشكرون أحدًا على ذلك ولا يكرهون أحدًا أكثر مني.

كان في طيات تلك المقايضة غباء متأصل، لكنه غير بَيِّن لكفاءتي. كنت فخورًا بكوني موزع الميزانية في سوق الإشهار الثقافي الذي يكرهه الكثيرون ويتودد إليه آخرون كثرٌ. شهرتي تكاد تكون أدنى من الواقع. كان من دواعي سروري أن أجعلهم يشعرون بسلطتي على احتياجاتهم، وتسويفهم، وفرض تخفيضات عليهم، وعدم صرف الميزانية المتفق عليها كل عام بل جعلهم دائمًا مدينين لي عندما يحين وقت المفاوضات الموالية. لم أكن أحترم أحدًا منهم، ولا العمل الذي يجمعنا، والذي لم يكن سوى قولبة ألسنتهم وتزييت إرادتهم. يذكرونني بسوء في غيابي، وكنت أجد في ذلك مدعاة للفخر. كنت أقول لصديقي المهندس ورئيس الجامعة، والذي لم يعد الآن صديقي:

- إذا ذكرني هؤلاء بخير أمامك، فاعلم أنني أسرقك بتواطؤ معهم.

كان فولتير هو صاحب الشكوى في الإمبارثيال. اتهمني بأنني نشرت في تلك الصحيفة نفسها، منذ سنوات خلت،

سلسلة من المقالات المنتحلة، كليًّا أو جزئيًّا. قال إن اكتشاف سرقاتي تلك جزءٌ من بحث لا يزال قيد الإعداد، يشمل جميع أعمالي، ليس فقط بصفتي صحافيًّا بل أيضًا بوصفي كاتبًا روائيًّا، وإنه يقدم تلك الأدلة الجزئية، ولكنها مفحمة. ثم شرع في تقديم إحدى مقالاتي المسروقة إلى الصحيفة، مقارنًا فقرة بفقرة بين ما وقَّعت عليه أنا وما وقَّع عليه في مجلة طبية إسبانية أحدهم يدعى إدواردو مانثانا، كاتب مجهول وقعت في حبه.

يجب أن أعترف بأنني عندما رأيت المقالتين التوءمين مستنسختين على صفحة بأكملها في الإمبارثيال، أحسست بشعور مأساوي، بإحساس سجنيٍّ حقيقي؛ فقد اكتشف الناس أنني مجرم كبير اقترفت جريمة عن سبق إصرار، لأن ذلك حدث في فترة من حياتي المهنية كنت فيها منتحِلا أدبيًّا. كانت فترة غراميّات مختلطة، ما أدى إلى تحمُّلي قدرًا مماثلًا من الخلط باعتباري منتحلًا. أعني أنني استسلمت خلال مدة طويلة لغباء إعادة إنتاج ما هو منتحَلٌ دون تغيير أو كيمياء، كنت أنقل الشيء تمامًا كما أجده في مصادر يتعذر الوصول إليها آنذاك، في بداية القرن، ولكن من السهولة بمكان مقارنتها الآن، مع وجود هذا الإنترنت المقرف الكاشف لكل شيء، ووسائل التواصل الاجتماعي.

كنت حينها أعيش في برشلونة، وأتردد على عيادة طبيبة أسنان إشبيلية جميلة هي التي لمَّعت بلسانها جسرًا، يشبه مجسمًا مصغرًا لجسر البوابة الذهبية، ووضعته بنفسها بين

ضرسيَّ الأيمنين العلويين الأول والثالث من أسناني غير المستوية، رغم كونها بيضاء جدًّا.

مضطرب من الداخل، أبيضُ من الخارج، هكذا أنا.

في غرفة الانتظار عند طبيبة أسناني الإشبيلية، صادفت في اليوم الأول مجلة طبية عجيبة مليئة بإعلانات المختبرات والمعدات السريرية، لكنها مكرّسة بالكامل لأروع مجموعة من الترجمات والسِّيَر الأدبية. دخلت العيادة وأنا أتصفحها، وظللت أنظر إليها من زاوية عيني بينما الطبيبة الإشبيلية، التي سأسميها هنا سوسانا رانكابينو، تحفر في لثتي المنتفخة وضرسي العلوي الأيمن الثاني، المنحرف عن مكانه.

-ابق هادئا يا سيدي. قالت لي بصوت أجش أدفأ أذني الوسطى، لأنني لم أكن أسمح لها بالعمل بحرية، إذ كنت أجتهد لاستكشاف تلك المجلة المثيرة.

بعد أن غادرت العيادة، وقد صدر حكم قلع الضرس وتركيب الجسر، والوعد بشهرين من التردد على البشرة السمراء والأيدي الخفيفة لسوسانا رانكابينو، بحثت في رف المجلات عن الأعداد السابقة لجوهرتي، ووجدت منها ثلاثة.

نظرت بشبق إلى شلال المقالات المتدفق إليّ من تلك الصفحات، مثلما يرى ماكبث السكّينَ الذي يقوده إلى خيمة الملك دنكان. ومثل ماكبث، فقدت النوم أيضًا تلك الليلة. استيقظت تقريبًا وأنا أبحث وأحدد في مجلاتي الأربعة

المقالات التي سأسرقها.

تنطوي السرقة الأدبيّة على رغبة تُفهم خطأ، وهي الآتية: إنها جريمة يصاحبها الإعجاب، يسرق المنتحل لأنه معجب، لأن المادة التي يسرقها تبلغ في دواخله بعدًا فنيًا فريدًا لا يمكنه الوصول إليه، ولا أن يتشرف به إلا بطريقتين: باستنساخه كليًّا، وهذه نسخة همجية للمهنة، أو تغييره بما يكفي ليصعب التعرف عليه لأول وهلة، لكن مع الحفاظ على أثر الإبهار الأصلي الذي دعاه إلى انتحاله كما هو.

لم يبهرني شيء في تلك الأعداد مثلما أبهرني العمود الذي تُفتتح به أعداد المجلة كل يوم. كان يكتبه شخص اسمه إدواردو مانثانا، ويتخذُ اسمًا لا أصالة فيه: حياة الشعراء. كان عمودًا مخصّصًا للحديث عن حياة كتّاب كبار في صفحتين فقيرتين تفتتحان المجلة بعنوان: ديك من أجل إسكولابيوس، بالكلمات الغامضة التي قالها سقراط لحظة موته، والتي يدعو فيها إلى التقرب بديك من إسكولابيوس أو أسقليبيوس إله الصحة عند اليونان، والتقرب، على طريقته، من الموت.

آه، إنها متعة الأصداء الغامضة لذلك اللغز، الذي تَعْبُره ذراعا سوسانا رانكابينو، وجريمة ماكبث، وضخامة الثقافة، وأنا، حيث كنت سأضيف إلى ثروة الإبداع التي لا تُحصى نسختي المجهولة، تقليدي الغامض الذي لا يوصف، مع جدارة التكرار وإعادة التدوير والتكريم عبر السرقة والازدواجية.

كنت آنذاك أكتب عمودًا أدبيًّا أسبوعيًا أنشره في الإمبارثيال -وقد سبق أن تفاوضت بعناية حول الملخصات مع خمس عشرة صحيفة من ثماني دول، كنت أحصل منها على ما يكفي للعيش في إسبانيا في ذلك الوقت، قبل النجاح، والغرور والغلاء- وإني، وإن لم أكن في الصحيفة مثل إقطاعيّ مكسيكيّ صغير، فقد كان لي أيضًا أفضل منصب، بعد القنصلية في ميلانو، في السلك الدبلوماسي، إذ كنت أتقلّد منصب قنصل في برشلونة، وكنت أتقاضى منه بالدولار ما يتقاضاه أيّ سفير في دولة أفريقية أو أوروبية شرقية، أي ثروةً كبيرة. ما كنت أتقاضاه من عمودي الغالي كان يضاعف مخصصاتي المالية بوصفي دبلوماسيًّا، لذلك يمكن القول أنني كنت آنذاك ثريًّا للغاية، وكان بإمكاني أن أسرف في النفقة وفي نفس الوقت أدّخر، مثل الأغنياء الحقيقيين، الذين ينفقون بقدر ما يكسبون، فهناك أوقات لا يستطيعون فيها الانفاق دون استثمار، إلا إذا كانوا أغبياء.

خسارتي الآن مع فولتير وما كشفه للإمبارثيال، كانت نعمة لي في ذلك الوقت. أقصد على وجه التحديد سوسانا رانكابينو المذكورة أعلاه، التي وقعتُ معها في غرام هائج. كنت أرغب في رؤيتها كل الوقت الذي تتركه لها عيادتها، وكانت هي أيضًا تريد رؤيتي، لذلك كنا نخرج كل ليلة لننفجر في حانات برشلونة الفاخرة منها والبائسة، وفي المطاعم المشهورة، ولا سيما مطعم "بوتافوميرو"، الذي نكرر الذهاب إليه مرتين أو

ثلاث مرات في الأسبوع، قبل أن نُغلق الأبواب عليْنا في شقتي المطلة على لاس رامبلاس وبيت "كاسا ميلا" أو بيت غاودي المُعوَجّ، حيث أشعر بالدوار كلما فكرت في أن شخصًا ما يعيش داخله.

لم يكن لدي وقت لشيء سوى للقنصلية وسوسانا؛ وإن كانت القنصلية، في الحقيقة، لا تأخذ مني أيّ وقت، بل إنني أمضي اليوم كله في انتظار اللحظة التي تتصل فيه سوسانا لأذهب بسرعة لتناول الغداء معها، حتى تتمكن من العودة إلى عيادتها التي تغادرها، وإن تأخرت، في الساعة السابعة لنبدأ جولتنا الغرامية في برشلونة. لست أدري كيف تتمكن سوسانا من الاستيقاظ في اليوم الموالي منتعشة، بعد أن شربت ومارست الجنس كثيرًا ولم تنم إلا بضع ساعات فقط. لكن الحقيقة أن ذلك الإيقاع يملؤها بالطاقة وبشيء يشبه التوهج في خديها وفي زجاج عينيها الأسود شبه المجنون. أما أنا فكنت أحتاج إلى نصف الفترة الصباحية لأستعيد صوابي وإلى قيلولة قصيرة تعيد لي، مثل تشرشل أثناء الحرب، إمكانية تمديد يوميَ المفيدَ حتى عتبة الفجر.

آه، يا سوسانا رانكابينو!

عشنا معا ثلاثة أشهر مجنونة، وأنهينا علاقتنا فجأة لأنها دهمتني ذات مساء، في الوقت الذي اعتادت أن تكون فيه في عيادتها، وأنا أتبادل أسرارًا مع كاتبة مكسيكيّة شابة كانت

تعرض روايتها الأولى أمام الأوغاد الأدبيين المحليين، كما تعرض ساقيها النحيفتين والطويلتين مثل شعرها وأصابع يديها. يجب أن أصرّح بأن الأسرار كانت تعبر من شفتيّ إلى أذنها، ومن شفتيها إلى أذنيَّ، بينما أرجلنا الحافية يدوس بعضها على بعض من تحت مائدة بمقهى الأوبيرا.

أن تكتشفنا سوسانا في ذلك الوضع السيئ قد يكون عارًا لو حدث في مدينة صغيرة، لكن ليس غريبًا جدًّا في مدينة عالميّة يمكن، على أيّ حال، أن يضمها منديل صغير. بعد ذلك المشهد، لم أتمكن مرة أخرى من اختراق دائرة حب سوسانا رانكابينو المجروح، فقدْتُها إلى الأبد. لكن قبل تلك اللحظة المشؤومة، وليدة صدفة قويّة عمياء، كنت ممتلئًا بها لمدة ثلاثة أشهر، لدرجة أنني في اليوم الذي أُرسل فيه عمودي إلى صُحفي المختارة، أجد نفسي دائمًا لم أنهِ العمل وعلى وشك الوقوع، مرة أخرى، في مشكلة مع سوسانا في انتمائنا وهدرنا الروتيني.

– أحتاج إلى ثلاث ساعات من العمل الليلة يا سوسانا. في الثانية عشرة ينتهي أجلي الأقصى.

– أي أجل أقصى! كانت سوسانا تقول وهي تتشبث برقبتي بيديها. فليذهب الأجل الأقصى إلى الجحيم. فيم ينفعني هذا الأجل الأقصى إلا في كونه ذريعة لرجل ضعيف القلب.

كل حروف السين في نهاية الكلمات كانت تُنطق هاءً، إن

لم تُنطق خاءً من بين الشفتين المُصَفِّرتين لسوسانا رانكابينو، التي لم تكن تنطق السين ثاءً.

تلك الأشهر هي الفترة الوحيدة التي وقعتُ فيها، لكن لعدة مرات، في الانتحال الغبيّ، أي الانتحال النصّي، وهو ابتذال مُشين، وغريبٌ تمامًا عن كيمياء مهنتي. في الأسابيع الموالية نقلتُ أعمدة مضيئة لإدواردو مانثانا، واحدة حول كونراد، وأخرى حول ميلفيل، وأخرى حول روبين داريُّو، وأخرى حول سيلين وواحدة أخيرة حول كيبلينغ. استطعت أن أضيف بعض اللمسات التجميلية على عمود كل من كيبلينغ وداريُّو، أما الأعمدة الأخرى فقد اكتفيت بنسخها بسرعة فائقة في الرقن -وتلك إحدى مهاراتي السرية- وأعطيتها لسكرتيرتي لترسلها عمودًا تلو الآخر، بواسطة الفاكس، الذي أصبح غير معمول به اليوم، إلى هيئات التحرير الخمسة عشر التي كانت مبالغها تضاعف مخصصاتي الشهرية في برشلونة.

أذكر أنني استيقظت ذات ليلة في تلك الأيام مفزوعًا، أهتز كالمجنون من بين ثديي سوسانا الصلبين، على وقع العبارة المميتة التي تدق في ذهني: "لقد أرسلتَه حرفيًا!"، وكأنني قتلت أحدًا وضميري يؤنبني بالصراخ عليَّ.

كل جريمة هي جريمةٌ، رغم أن لكل واحدة حجمها الإجرامي. وجريمتي بلغت الانتحال فقط، غير أن عقابها انتهى أيضًا بقتل نوْمي، مثلما حدث مع ماكبث. قتَلَتْه لي بضعة أشهر

ثم نامت طويلًا، نوم العادلِين، وكان في حالتي نوم إفلات من العقاب حتى طفا إلى السطح سليمًا ويقظًا على صفحات الإمبارثيال من قِبَلِ فولتير.

نشروا النص الذي كتبته حول ملفيل وكان مطابقًا كلمة كلمة، فاصلة فاصلة، فقرة فقرة، للنص الموازي لإدواردو مانثانا، الذي لم يكن يعرفه أحد سواي، أنا الذي نسيته.

تعرفت عليه بواسطة جرس على صدغي وصرخة صامتة كانت تجأر بداخلي من جديد، فوق ثديَي سوسانا رانكابينو النائمين: "لقد أرسلتَه حرفيًا!".

طعنة فولتير في الإمبارثيال انتقلت وتفاقمت على صفحات جرائد أخرى. أريد أن أقول إنها رددت البلاغ التشهيري، مختصرة خبر سرقتي ومؤكدة على احتمال أن تؤدي سرقتي تلك إلى تلويث الجامعة، التي كانت كل تلك الصحف تحرسها بإخلاص. تلك هي الطريقة التي كافأتني بها هذه الصحف على إذعاني في اليوم السابق لمطالبها المادية: دافعتْ عن الجامعة وتركتني أواجه مصيري في ساحة مفتوحة لعلي أدافع عن نفسي، إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

كان فولتير أذكى من ذلك. كان له السبق في الخبر وظل محتفظًا به. ففي اليوم الذي كررت فيه الصحف الأخرى خبره دون أن تذكُرَه باعتباره مصدره، وكانت تدافع باستماتة عن الجامعة، التي منحتُها أنا أموالها في اليوم السابق، قدَّم فولتير

إلى جريدة الإمبارثيال ما كنت أخشاه: البرهان الثاني والثالث والرابع على الانتحال المبتذل لإدواردو مانثانا الذي وقعتُ فيه قبل عشر سنوات.

أصبحت الإمبارثيال الآن تنشر ربُعَ المقالات التي وقعتُها. وكل ربُع مما وقعتُه يكون مطابقًا تمامًا للربُع المقابل له مما خطه قلمُ إدواردو مانثانا الرائعُ. أعترف أنه قبل أن ألوم نفسي وأضعَني في حالة تأهب جراء سوء حظي المتكرر أربع مرات، استغرقت وقتًا طويلًا في قراءة تلك العبارات الرائعة التي ابتكرها مانثانا عن داريُو وسيلين وكيبلينغ، وكلها عبارات تستحق أن تقرأ، وتُنقل، وتُعاد قراءتها وتُعاد كتابتها من أيّ كان، كان مانثانا أو أنا.

لماذا لا يستطيع أحد نسيان إدواردو مانثانا وعدّ الجمل التي كتبَها جملًا لي، جملٌ سبق أن قرأها قراء الإمبارثيال باعتبارها من إنتاجي ونسوها منذ عشر سنوات، دون التفكير في أنها تستحق الاهتمام ومكشوفة مثلما هي الآن، حيث أصبحت تبدو متطابقة مع جمل إدواردو مانثانا، هذا الذي لم يكونوا يعرفونه لكنهم أعجبوا به لمجرد أنني نقلت منه؟

كانوا غير قادرين على أن يتعرفوا فيَّ على عظمة النصوص التي كتبها إدواردو مانثانا، لمجرد أنني نشرتُها منذ عشر سنوات باسمي. يبدو واضحًا الآن أنها كانت نصوصًا رائعة لأنه من المستحيل تفسير كوني أنا كاتبَها. أوغادُ طبقة الأدباء الأمّيّون:

يصبغون على المؤلف المجهول عظمة وثناء لم يمنحوهما لي عندما وقّعتُ تلك النصوص باسمي. الآن يمكنهم أن يقولوا، كما كانوا يقولون، مدفوعين بفولتير، إنهم منذ ذلك الحين كانوا بالفعل يشكون في أن تلك المقالات لا يمكن أن تكون لي وهي بتلك الجودة، وأنه كان هناك شيء ما غريبٌ يشوب ذلك التألق النابع من قلمي.

مجرد التفكير في ذلك يمكن أن يجعلني أبكي، لكن الموقف ليس موقف بكاء. كنت أرى أوغاد طبقة الأدباء، الذين كنت أغدق عليهم هباتي، يقفون ضدي لإثبات أنهم لا يدينون لي بشيء. وكنت أعلم جيدًا أن نعتنا بـ"اللص" لمن تقاسَم معنا جزءًا مما سرقه، طريقةٌ ناجعةٌ نُنزِّه بها أنفسنا عن التهمة.

الوضع صعبٌ لكن يمكن الدفاع عنه. يتعلق الأمر، في الحقيقة، بسرقة أربعة مقالات صحفية، منذ سنوات عديدة ويمكنني أن أنكرها جملة وتفصيلًا، وأقدم بعض الأموال الإضافية للصحف، وأطلب منها نسيان الأمر. يمكنني أيضًا، وهذا أفضل، أن أقبل ذلك بتواضع، وأقول إنه في زمن الجنون والحاجة ذاك، لم أجد بوصفي كاتبًا، طريقة أخرى لتقدير الذات غير ذلك الخيار المؤسف لنسخ بعض النصوص الرائعة والموت من العار بقية حياتي، العار الذي لا يعرفه اليائسون ولا يمكن أن يطالهم، لأنهم لا يحسبون أنه سيطاردهم طوال حياتهم.

تحدثت عن هذا الموضوع مع صديقي المهندس، رئيس الجامعة -لم يعد اليوم صديقي- ونصحني بشيء سبق له أن طبَّقه عدة مرات وبنجاح مع زوجته:

- أنكر أيها الجبان! أنكر حتى ولو وجدوك في السرير. أنكر وادفع لأصدقائنا حتى لا يحطمونا.

لم أعره اهتمامًا لأنه بدا لي بذيئًا بذاءة لا تستحق قيمة ذنْبي؛ ذنبي الذي هو في نهاية المطاف ذنبٌ حِرَفيٌّ. أعني: ذنب إغفال، يذكر مواهبي بسوء، ويتحدث عن البعد الحقيقي لخطاياي. لقد فشلت أربع مرات في مهنتي العليا كمنتحل أدبي، بنسخ ما كنت أسرقه نسخًا حرفيًا. اعتقدت أنني يمكن أن أعترف وأعتبر ذلك تهورًا شبابيًا مغفورًا.

ذلك ما فعلت. وكذلك سارت أموري.

اعترفت بأن السرقة الأدبيّة التي اكتشفوها عليّ مجرد تهوّر شبابي وطلبت الصفح عنها علنًا، وتصرفت بتأدُّب مثل مجرم أمام محاكم التفتيش.

عندما اطلع المهندس رئيس الجامعة على توبتي المعلنة في الصحف قال لي: "أنا أمرتك بشيء آخر".

لم يستخدم معي قط فعل "أمرتك"، رغم أنه كان دائمًا يعدّني في قرارة نفسه مساعدًا منفذًا مطيعًا له. طريقته في مخاطبتي، واحتفاؤه المستمر بصداقتنا أو بالثقة التي بيننا مجردُ وسادة

يخفي داخلها خنجر سلطته. وسواء كان في حديثه معي ودودًا أو قلقًا، خطابه يتضمن دائمًا، في النهاية، أمرًا ما. لا اقتراحًا أو تبادل شكوك أو اعتبارات ودّية، بل أمرًا.

فهمت هذا منذ أول يوم عاملته فيه بصفته رئيسًا مُعيّنًا، وهو اليوم الذي دعاني فيه للغداء ليمنحني ميزانية الشؤون الثقافية بالجامعة، وعندما سقط منه منديله الذي كان بين رجليه أثناء الأكل قال لي:

- أخي، من فضلك، اطلب من النادل أن يحضر لي منديلًا آخر.

لم أنس ذلك المشهد قط. منذ ذلك الحين، عاهدت نفسي على أن لا أعيش مطلقًا مع صديقي المهندس رئيس الجامعة الحكاية النموذجية للنساء اللائي يَعُولهن أزواجهن ولا يضعن في حسبانهن قطّ مسألة من يُصدر الأوامر، لأنهن لا يضعن في حسبانهن قط مسألة من يدفع مصاريف البيت. قررت، بدلًا من ذلك، أن ألعب دور الزوجة الداهية مع صديقي، والذي لم يعد الآن صديقي، وأكون تحت إمرته دون طرح أسئلة، وأسرق من جيوبه كل ما استطعت الوصول إليه -وذلك ما فعلته- إلى أن يحين الوقت الذي يطالب فيه بسُلطته، عندها يمكنني أنا أن أرسله إلى الجحيم حاملًا في جيبي، الخارج عن سيطرته، ما أخذته منه.

في اللحظة التي قال لي فيها "ليس هذا ما أمرتك به"، كنت

قد حصلت منه على الكثير، بيد أنِّي أُصِبت بجنون العظمة لأني ظننته بات في قبضتي وأنه سيخاف ويتراجع إن أنا هددته بأني سأرحل من حضنه، وسيكون وراء ذلك مشاحنات نارية في الصحافة.

عرفته معرفة جيدة. لم يكن جبانًا بل انتهازيًا، وعندما تحين الفرصة أمام عينيه بوضوح يصبح "غيرُ الجبان" شجاعًا، بل جسورًا، خوفًا من ضياع الفرصة التي سنحت له.

صديقي المهندس ورئيس الجامعة، لم يعد الآن صديقي.

٣

يوم الخميس، اتُهمت بأنني سرقت أيضًا موضوع روايتي الفائزة.

الوضع خطيرٌ كما هو واضح، لكن يمكن معالجته بشيء من التواضع أمام النقاد، تواضع المعترف على نفسه، وخطوة مجاملة نحو المهندس رئيس الجامعة الذي كان يحب أن نثني عليه على انفراد، وكذلك أن نشكره ونقدره في العلن.

تجهَّزتُ للاعتذار له بتملق شديد؛ وقد سبق لي أن جربت معه ذلك بنجاح في مناسبات أخرى للرفع من معنوياته، هو الذي يكون فريسة سهلة للحزن، أو ربما فقط يتفنن بمهارة في ترك نفسه يسقط لكي يرفعه الآخرون.

بدأتُ معركتي منذ اليوم الموالي، بحيث أني بادرت بالذهاب إلى منزله عند الفجر، دون سابق إنذار، أشعثَ وغير حليق كما يجب، لأفتح له قلبي وأصرّح أمامه بأني جانٍ أستحق العقاب. أي أن أقول له إن كرمَه وحده هو الذي يمكن أن ينقذني من اللحظة المظلمة التي أجدني فيها، وحمايتَه

وحدها هي التي يمكن أن تعالجني. لم أصل إلى درجة البكاء، لأن ذلك لم يكن ضروريًا. مشهد تبعيتي له أزال عن وجهه على الفور تكشيرة مفاجأة الصباح، وحوَّل مزاجه الشائك إلى ميدان تفوقٍ مغرور أمام عِتق الصديق. لقد أصبحتُ الآن صديقًا مُعْتَقًا، مطيعًا للتراتبيات الطبيعية، وهي: أنه هو المهندس رئيس الجامعة وأنا مجرد موظّف عنده.

شُفيَ أذَى قساوتِه المحتملةِ قبل الإفطار، لكنني واصلتُ علاجَه خلال النهار في عمليتين كانتا تنتظرانه في الحرم الجامعي: واحدة في كلية الهندسة، حيث كان سيستقبل أرجنتينيًّا حاصلًا على جائزة نوبل، والأخرى في رئاسة الجامعة نفسها، حيث كان من المقرر عقد اجتماع لمجلس الجامعة. وكما كان يقتضي الأمر في مثل تلك الأنشطة، كنت دائمًا أحرص على أن يصفق الحاضرون تصفيقات حارة عند وصول رئيسنا وعند مغادرته. في ذلك اليوم، تأكدت من أن التصفيقات استمرت للحظة أطول بكثير مما كان متوقعا، مستغلّة كون فريق الجامعة لكرة القدم قد تأهل البارحة لدوري نهاية البطولة المكسيكية.

لم تكن لصديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي، أي علاقة بتاتًا بهذا الانتصار، فالفريق يديره رجال أعمال من خارج الجامعة، وكانوا يستعملون فريقنا وسيلةً للحصول على امتيازات، لكن صديقي كان يحب حضور المباريات وتلقي المدح العلني من رجال الأعمال على تواضعه وحسن تعاونه ومعرفته بقواعد اللعبة.

من هذه المجاملات السياسية لهؤلاء المالكين المستفيدين من الفريق كوَّنتُ فكرة عن حملة مُلتوية، ولكنها خفية ومقنعة، حول الطريقة التي استطاع بها صديقي رئيس الجامعة، بوصفه مهندسًا جيّدًا، أن يضع نظامًا ويُنسق الجهود في التنظيم الرياضي، بحيث أصبح الأداء الجيد للفريق، الذي هو نتيجة استثمارات رجال الأعمال ومعرفتهم الجيدة بحِيَلِ هذا الميدان، يُحسب بشكل سهل وكاذب ومداهن لصالح رئيس الجامعة.

الحال أن الجميع يهنئه عندما يفوز الفريق، والجميع يسمح له بالمرور دون أيّ تعليق عندما يخسر. ذلك التصفيق الستاليني الذي سرَّعْتُه ذلك اليوم للحظة قصيرة كان مبالغًا فيه وبدا بلا نهاية. لكنه داخلٌ في المنطق الذي وصفتُه، وظلَّ تصفيق تملُّقٍ لصديقي رئيس الجامعة -لم يعد الآن صديقي- مهما طالَ. كان الأمر كذلك لدرجة أنه دعاني تلك الليلة إلى الشرب معه، كما في الأيام الخوالي، فرحًا برياح الخير التي تهبُّ الآن علينا وعلى الجامعة. فهمت أن استعماله لصيغة الجمع تغفر لي. لم أشرب كثيرًا. أسقيتُه الزجاجة كلّها تقريبًا.

هكذا انتهى يوم الأربعاء، سعيدًا، ونمت نومًا هادئًا حتى الساعة الأولى من صباح اليوم الموالي، ساعة وصول الجريدة. التقطتُها من تحت الباب وتصفحت بأم عيني، كما لو كان ذلك امتدادًا لحلمي، العمودين الموجودين على الصفحة الأولى من الإمبارثيال، حيث صوّب إليَّ فولتير ضربته الموجعة،

متهمًا إياي ليس فقط بسرقة المقالات المعلومة، التي اعترفت بذنب انتحالها، بل بالرواية نفسها التي فازت بجائزة مارتين لويس غوثمان من الكُتَّاب إلى الكُتَّاب. وأنني سرقتها من مارتين لويس نفسه.

قبل أن أقرأ، كنت أعلم أن فولتير يقول الحقيقة، وأنه اكتشف أمري: لقد لمس قلب روايتي الفائزة، قلبي باعتباري محاكيا خبيرًا للأدب، وباعتباري منتحلًا ماهرًا. هذا الشيء الذي يفضحه هو الآن، هو ما كنت أعلم أنا أنني فعلتُه. تنقصني فقط معرفة درجة ضبطه لجريمتي، ومقدار التفاصيل المتوفرة لديه عنها.

سأفسر أكثر:

ربما لا يقترح الأدب شيئًا جديدًا، وفي العمق لا يتلقَّى أيّ مقابل مهني غير الانتحال. ففي تاريخ كل الآداب، نجد جيشًا من المكرّرين مقابل كلِّ عددٍ قليلٍ من المبدعين الحقيقيين. وتاريخ الأدب، في عمقه، ليس سوى تاريخ سلسلة من الكَتَبة الذين يحاولون تقليد ما أحبُّوه في مؤلفين آخرين، الاستعارات الأساسية، الحبكات التي لا محيد عنها، العواطف المزدوجة التي اكتشفها وقام بتشفيرها بعض العباقرة، الناطقون الحقيقيون بعبقرية اللغة، التي هي في الأساس لا تنتمي لأحد بل تعيش وتنتشر من تلقاء نفسها. يمكن النظر إلى تاريخ الأدب بأكمله على أنه طِرْسٌ ضخم قال فيه ثلة من المؤلفين كل شيء، والبقية

مجرد نُسَّاخ، إما بُلْه أو أذكياء.مكتبة .. سُر مَن قرأ

بعد إمعان النظر، نجد أن المؤلفين ليسوا سوى مزيج من المؤلفين، أي منتحلين خجولين أو غير واعين لما قرؤوه وظل عالقًا بأذهانهم، وأحيانًا دون أن يدركوا جيدًا تلك الآثار.

يمكن فك رموز كتبي واكتشاف كونها منتحَلة بمجرد الانتباه قليلًا لما تضمُّه من أصداء مُقَنَّعة لكتَّاب ذوي شهرة كبيرة أو متوسطة، لأن أصداء حبكاتهم واضحة، وتلميحاتهم كلاسيكية. غير أن تلك الأصداء والتلميحات التي اكتشفها العديد من النقاد وأشاروا إليها، كان يُنظر إليها في كتبي على أنها شكلٌ من أشكال الأصالة، وجزءٌ من صنعة تجلٍّ أو تناصٍّ، وكل هذه الألفاظ النابية ليست لي بل للنقاد المعروفين.

ما فعله فولتير كان أكثر ذكاءً وعمقًا من كشف هذه الطرق المبتذلة لـ"أسلوب تناصيَّ" المفترضِ. لقد بحثَ عن طريقة محاكاتي الخاصة، عن نسختي الفريدة، ووجدها بدقة قاتلة، في تكرار طعنة لا أبرِّئُ منها "داليا"، زوجتي السابقة؛ إذ إنني، ذات ليلة حبٍّ، تملكني ضعف الاعتراف لها بفخري العميق بأعظم سرٍّ في فن الانتحال، حيث أقوم فيه بطريقتي الفريدة غير القابلة للتحويل لغيري، في السرقة.

هذا الفن لم تكن له علاقة بابتذالات النقل الحرْفي لكل ما كان يدهشني، أو ببناء أطراس متناصّة، وهو ما اعترفوا بموهبتي فيه. طريقتي كانت هي النقل بعمقٍ، والإبداع من داخل ما تم

نقله، ونقل الروح والمادة، أصالة النموذج وجماله، دون أن يستطيع أحدٌ القول بأن ذلك انتحال، إلا إذا عرف مفاتيحه.

وتلك المفاتيح هي ما أعطيته لزوجتي، هي الآن زوجتي السابقة، ذات ليلة فورانٍ. وقد أعطيتها تحديدًا تلك المتعلقة بالكتاب الفائز بالجائزة. الشيء المذهل والقاتل في هذه القضية هو أن المؤلف الذي انتحلته هو نفسه الكاتب مارتين لويس غوثمان. وقد فعلت ذلك بكثير من الإلهام والاهتمام، بحيث أن حتى أفضل القراء يمكن أن يمروا على الصفحات العديدة للجريمة دون أن يجدوا فيها أثرًا لها، إلا إذا توفرت لديهم بعض المفاتيح، والتي تمكننا معرفتها، مع ذلك -كما هو الحال مع الأرقام السرية للصناديق الحديدية القوية- من الدخول التام والبلوري للمنظومة بكاملها.

بَنيت آلية النقل من غوثمان من داخل روايته ظل الزعيم (La sombra del caudillo)، وهي حكاية تمرُّد عسكري فاشل أودى بحياة المتمردين. إنها رواية مستنيرة، بإيجازها ونبضها المأساوي، حول الصراع من أجل السلطة الثورية في المكسيك أثناء عشرينيات القرن الماضي، صراع يمكن نقله بسهولة، بالنسبة لناسخ مثلي، إلى زمن عنف حديث في البلد، لنَقُل في بدايات القرن الحادي والعشرين. ذلك ما فعلته: سرد حكاية مؤامرة في مكسيك الثورة في عشرينيات القرن الماضي، ضمن صراع على السلطة وسط عصابة مخدرات عنيفة في المكسيك خلال أوائل القرن الحادي والعشرين.

لم أستعن بالوضوح التولستويّ للأصل، ذاك كمالٌ يفوق استطاعتي، بل بما يتوفر فيه من لغة قديمة. لكنني نقلت الحبكة ووضع الشخصيات بدقّة مكافئة. حوَّلت مجلس النواب في الرواية الأصلية إلى ملهى ليلي عصريٍّ، والقصر الوطني إلى بيت كبير به مسبحان، والجيوش الثورية إلى عصابات مخدرات، والزعيم المنتصر على أقرانه إلى رئيس عصابة منتصر مجنون بالعظمة، والجنرال الثائر إلى رئيس عصابة مخدرات متمرد، ومستشاره السياسي إلى محام مختص في الجنايات، والجميلة "روساريو" في ظل الزعيم إلَى ملكة جمال "سينالوا" سابقًا، ومنفذي أوامر الثوار المتمردين إلى عصابة من القتلة المستأجرين، مكونة من نخبة عسكريين سابقين، وبذلك يكون ثعبان الانتحال يعض ذيله، لكن بغير مهارة.

ولم تكن جائزة الحرب، في النهاية، هي الظفر برئاسة الجمهورية، بل السيطرة على مدينة "سيوداد خواريث" الحدودية لتمرير المخدرات إلى الجانب الآخر.

غيرت الترتيب الزمني للفصول، وغيرت الحوارات، والفضاءات، وأزياء الشخصيات. لكنني نقلت حرفيًا ما حدث في كل فصل، ومنطِقه الدرامي، والمعنى النفسي لمَشاهدِه وحواراته، بحيث يمثل تجار المخدرات في روايتي، بكلمات أخرى وفي زمن آخر، ما عاشته شخصيات ظل الزعيم بالضبط: حكاية هجوم فاشل على السلطة ونهايته المروعة.

بتغيير ترتيب الفصول، تغيَّرَ التسلسل السردي أيضًا. فبدلًا من التدفق الثابت الكلاسيكي المتعاقب عند غوثمان، كانت مشاهدي متقطعة متناوبة ومتناقضة على طريقة رولفو أو فولكنير، وذلك ما تدرَّب عليه القارئ الحديث وأَلِفَتْهُ خرافاته، بعد أن أُجبر على القراءة المتقطعة لروايات زمنه التي يتوجب عليه إعادة تنظيمها في ذاكرته بدل الاكتفاء بقراءتها. كان هذا التعقيد المصطنع مناسبًا جدًّا لما أصبو إليه. فالحواجز الزجاجية للحداثة السرديّة تُخفي بقوة الوضوح الكلاسيكي للحكاية الأصلية، والاستعمال الحرفي لمشاهدها، واللعب الدرامي بشخصياتها.

وهكذا أصبح الفصل الأخير من ظل الزعيم هو الفصل الأول من روايتي. في ذلك الفصل الأخير من رواية غوثمان، نجد أن قاتل الجنرال "أغيرِّي" يدخل متجرًا للمجوهرات، ويختار قلادة ويدفع ثمنها بحزمة من أوراق نقدية لا يزال عليها أثر نار إحدى الطلقات التي قتلت "أغيري"، الذي كانت سيارته من نوع "كاديلاك"، وهي رمز للنجاح طوال الرواية، تنتظر القاتل خارج المحل، وكأن ذلك إشارة إلى أن الجلادين، في المنطق العميق لذلك الزمن، يرثون غنائم ضحاياهم.

في فصل روايتي، يدخل رئيس القتلة المستأجرين الذي يُسيّر عملية إعدام رئيس العصابة المتمرد في ملهى ليلي عصري، إلى متجر مجوهراتٍ ويبحث عن قلادة ذهبية مطابقة لتلك الملطخة بالدماء التي يحملها في يده. يشتري أربعة

قلادات ويوزعها على أتباعه، الذين ينتظرونه في سيارة من نوع "سوبوربان" سوداء وهم يحرسون الفتاة الجميلة المنتزَعَة من رئيس العصابة الذي توفي في ذلك الصباح، كما انتُزِعت منه القلادة الذهبية الملطخة بالدماء. إنه الإعلان في روايتي عن القواعد الواضحة والوحشية لعالَم رواية جوثمان: الفائز يفوز بكل شيء.

تنطلق روايتي من هذه النهاية إلى حكايتها في مقطع مُغيَّر زمنيًا، لكنه منقول عن وعي من النموذج الأصلي، شخصيةً بشخصية، ومشهدًا بمشهد، كما نقلت التقاطعات والمثلثات الدرامية مجموعة مجموعة.

كما قلتُ، كنت أبثُّ في جميع أعمالي بعض العبارات المنقولة حرفيًا من الأصل، لكنها تكون مندمجة في بيئتها الجديدة بحيث يصير من المستحيل التعرف عليها. لكن في عملي حول غوثمان تخطيت عدة خطوط من هذا الهوس، تجاوزت كل حدودي. قررت أن أترك في كل فصل على الأقل عبارتين حرفيتين من الأصل، وكان من ضعفي وغروري الزائد، أنني سطَّرتُ تحتها في النسخة التي لدى داليا، دالياي، لأكشف لها حدود صنعتي، واستسلام جيوشي أمام حصن جسدها وأمام نظرتها الفاتنة المسرنمة والممسوسة، التي استحوذت عليّ.

وهذه أمثلة عن العبارات المنقولة حرفيًا:

كتب غوثمان عن روساريو، البطلة الضائعة لـ ظل الزعيم، الملاك الغِر الذي أضجره الحب الفاسد والمفسد للجنرال أغيري، قائلًا:

في تلك الساعة نفسها، كانت روساريو تنتظر، تحت الأقداح المرتفعة على قارعة طريق "المتمردين"، لحظة موعدها مع أغيري. كانت تتجول من مكان إلى آخر، والضوءُ الذي يلاحقها يجعلها تندمج في المشهد، ويضيفها إلى لعبة التلألآت الرطبة والشفافة. كانت تذهب، مثلًا، عند عبور المناطق المشمسة، ملفوفة في الوهج الناري لمظلتها الشمسية الحمراء. ثم عند مرورها في الأماكن المظللة كانت تتختَّر ببريق ذهبي، تتغطى بدروع ذهبية صغيرة تتساقط كالمطر من أغصان الأشجار.

وكتبتُ أنا:

كان إلغراندي ينتظر روسالبا عند باب المدرسة الإعدادية، وينظر إليها قادمة على الرصيف الواسع، تحيط بها أشجار الجكراندا الصغيرة التي تقطع بظل أوراقها، بعد كل مسافة، شرائط شمس الزوال. تمشي روسالبا عبر ذلك النفق وكأنها تطفو، في لعبة واضحة من التلألآت الرطبة والشفافة. اللون الأحمر لزيها المدرسي يلمع تحت أشعة الشمس، وأشجار الجكراندا تؤطر مرورها عبر الأماكن المظلَّلة، بسقف من الزهور الحية وبساط من أزهار ميتة ذات لون أرجواني زاهٍ،

تتساقط كالمطر من أغصان الأشجار، تبدو وكأنها تُلْبِسها شيئًا آخر، وتجعلها خارج هذا العالم.

ما فعله فولتير في الأجزاء الثلاثة التي أرسلها إلى الإمبارثيال حول روايتي هو أنه كشف عن التطابق الدقيق بين مشاهدي ومشاهد غوثمان، وأكَّد على جميع العبارات الحرفية التي تعد أدلة شاهدة على المؤلِّف الخفي، وعددها يناهز ثمانية وخمسين. مع وقاحة إضافية: عدد فصول روايتي المخنثة هو نفسه عدد فصول رواية غوثمان، وليس هذا فقط، بل أيضًا عدد الكلمات هو نفسه في كل فصل.

تلك الأعداد السرية، التي أسررت بها إلى داليا ليلة استسلامي اللا مشروط لها، أصبحت الآن دليلًا، لا على صرامتي في مهنتي فقط، بل على حجم الاستهزاء بالأدب والقراء الذي استطعت ارتكابه.

ينبغي القول أن نص فولتير كان محكمًا مثل البناء السري الذي يُبيِّنه، أي بنائي أنا. لقد نَقلتْ جودةُ التصاميم المَخفِيَّة لتلك السرقة -كما باحت بها داليا في أذنيه- إلى طريقته في التشهير بي، عظمةً تأويليةً غريبةً، هي، في الواقع، مدينَةٌ لعظمة الانتحال المقترف. هذا الأخير، بعد أن تم الكشف عنه، لم يعد نوعًا من العبقرية، بل أصبح عينة خداعٍ مقرفةً.

عشت ثلاثة أيام غارقًا في الصُّهارة السامة لذلك الكشف عن قدراتي.

يوم الجمعة زرت مارثيلينا في منزلها الريفي في كويرناباكا.

- يقتلونك يا حبيبي، إنهم يقتلونك. قالت مارثيلينا وهي تتنفس بصعوبة نظرًا لإصابتها بمرض الربو، ثم بدأت تبكي مثل ماغدالينا.

قد يكون ذِكرُ ماغدالينا منافيًا للمناخ هنا، أمام مشهد امرأة مسنة، يداها عبارة عن نسيج عنكبوت من جلد رقيق وجاف، وعظام خدودها المرتفعة لطختها تباشير الزمن الحزينة ببقع سوداء تستحق أن تخضع لاختبار رورشاخ. لا تزال الومضات الأخيرة لتلك الإلهة المنخورة تتأرجح في ذاكرتي، الومضات وتلألآت الفترتين العمريتين اللتين تصادفنا فيهما بكل سعادة: وهي في الخمسينيات الذهبية من عمرها، وأنا في الثلاثينيات الشبقة والعطشى. الحقيقة أننا كنا سعيدَيْن سعادةً لا يمكن أن يحس بها إلا عاشقان سريَّان يعلمان أنه محكوم عليهما بعدم الاستمرار.

تلقيت، يوم الأحد، المكالمة التي كنت أنتظرها منذ يوم الخميس، مكالمة من صديقي المهندس الرئيس، الذي لم يعد الآن صديقي.

الرواية الرسمية لغيابه تقول أنه قضى الأسبوع خارج المكسيك، في مؤتمر جامعي في ساو باولو. والحقيقة أنه قضى عطلة نهاية الأسبوع في ريو دي جانيرو مع صديقته الشابة التي تحافظ على استمرار حياته الزوجية. لم يطَّلع على

شيء من شتيمتي في الصحافة المكسيكية حتى ليلة وصوله، عندما استقبلَتْه زوجته، العابسة والمريبة، في منزلها وقدمت له رأسي والصحف القديمة على طبق.

أشارت إليّ على الفور.

- لابد أن نتحدث، علينا أن نتحدث في هذا الأمر بشكل جدي ونهائي. قال.

علمت، ظننت أنني علمت، أن كل شيء قد انتهى. في الحقيقة، إنما هي البداية.

٤

وفي يوم الاثنين من الأسبوع الموالي، وقَّع تسعة وسبعون كاتبًا رسالة ضدي. صباح ذلك اليوم بالذات، اكتشفتُ أن زوجتي هي التي قامت بالتنسيق السري بين أولئك الذين اتهموني، هي المخبرة الطائشة التي أعلمت الكاتب الذي فضح انتحالي للمقالات وللرواية، المحرض الحقيقي على كل ذلك، ولهذا السبب سميته في هذا الكتاب فولتير.

استيقظت يوم الاثنين، وما زال الوقت ليلًا، على صوت الجريدة وهي تنزلق من تحت باب منزلي. قفزت من السرير في الطابق الأول وهرولت لألتقطها عاريًا. فتحتها برعشة من له علم مسبق بمحتواها. بمجرد أن فتحتها بأصابعي وقعت على الصفحة الكاملة. أدركت على الفور أنني أمام قرار الحكم عليَّ بالإعدام دون محاكمة. كان العنوان كما يلي:

لا للسرقة الأدبية.

نهاية الفساد الثقافي في الجامعة.

وبعده نص جاف، مكتوب برصانة خبيثة، لا يتضمن ميلًا ولا كراهية، مثلما كان يريد تاسيتوس. يَذكُر النص خطاياي الكبيرة وكأنه يصف الآثار الجانبية لدواء ما. وأسفله، بترتيب أبجدي صارم، كانت أسماء تسعة وسبعين موقّعًا. لم يكونوا يطالبون فقط بأن أتخلى عن جائزة مارتين لويس غوثمان الأدبية، من الكتَّاب إلى الكتَّاب،بل أن أتخلى كذلك عن امبراطوريتي الصغيرة، وهي، في نهاية المطاف، ليست صغيرة جدًّا، بالنظر إلى عدد التوقيعات التي استطاعت أن تعاديها.

قائمة الموقعين غير مفهومة لدى عموم الناس، إذ كانت مجرد مجموعة من الأسماء، لكنها بالنسبة لي كانت متماسكة. لا يدرك معنى تلك القائمة إلا أولئك الذين يعرفون القصة الصغيرة التي توجد وراء كل اسم من تلك الأسماء. لم تكن الأسماء في حد ذاتها تقول الشيء الكثير، لأنها كلها لكتَّاب متسلقين وغير ذوي شهرة.

غير أن كل توقيع من تلك التوقيعات يقع في ذاكرتي أنا موقع الإهانة. جميع الموقعين باستثناء واحد يبلغون من العمر ما يكفيهم ليعلموا أنهم رديئون، لكن الكثيرين منهم، أغلبهم، ما يزالون صغارًا بما يكفي لكي يعتقدوا أنهم لحقهم ضرر جسيم في حياتهم المهنية، لأن أحدًا ما لم ينشر لهم كتابًا أو لم يتدخل ليحصلوا على جائزة ما أو لينشروا في مجلة معينة، أو أنه لم يمنحهم العمل الذي كانوا يبحثون عنه، أو أنه سلب منهم ما كان لديهم.

ذلك الـ"أحدٌ ما"، ذلك اليوم، في تلك الجريدة، هو أنا.

لقد فعلتُ شيئًا، أو فشلت في القيام به، كان على حساب هؤلاء الموقعين أسفله التسعة والسبعين. كلهم استفادوا في وقت ما، وفي مناسبة أخرى أُلحق بهم أذًى معينٌ من لدُني، أثناء عبورهم صحراء المِنح والجوائز والمنشورات والمعاشات وفرص الشغل.

باستثناء واحد، كانوا كلهم، كلهن، كتابًا وكاتبات، غير قادرين على الحصول بواسطة أعمالهم على ما حصلوا عليه مني عبر وعودي، نظرًا لأن أعمالهم واعدة، وعدًا لم يتم الوفاء به، أو الأنكى من ذلك، أنه تم شبه الوفاء به. كانت إهاناتهم مألوفة لدي. لقد سبق أن أعطيتهم جميعًا شيئًا ما إما كصحفي أو ناشر أو مسؤول عن ميزانية الجامعة. ومنعتهم كلهم، في وقت ما، لنفس السبب الذي أعطيتهم به؛ لأنني كذلك أردت أن يكون الأمر.

آه، السلطة.

هذا الميدان معروف، ولكن نظرة واحدة على كل تلك الإهانات المختارة تبين أن هناك كشفًا شنيعًا. مكثت أقرأ عاريًا على أريكة في الصالة، أتذكر كل مُوقِّع، أعُدُّ ما أعطيته لكل واحد منهم، علة تعارفنا وخصامنا.

لم أذهب إلى الموعد المبكر مع صديقي المهندس رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. تسمّرت أنظر إلى اللائحة.

أحضرت كراستين من خزانة دفاتري السرية وشرعت في تدوين ما أعرفه عن كل واحد منهم، بدءًا بالنساء. سجلتُ حكاياتهن على الصفحة الصفراء المسطرة لكراسة كانت داخل محفظة ومعها قلم تعود لندوة صحفية في بين كلوب (Pen Club). وفي كراسة صفراء أخرى، وبقلم من ندوة أخرى أقيمت في معهد آسبن (Aspen Institute)، سجلت قائمة إهانات الرجال.

عُدت إلى تفاصيل المحفظات لأشارككم واحدة أخرى من هواياتي السرية، وهي الاحتفاظ بمحافظ الندوات الأكاديمية والاجتماعات الأدبيّة التي كنت أحضرها. كانت خزانتي مليئة بهذه الأدوات ما قبل الرقمية، وكنت أنظمها بشيء من الهوس مثل مجموعة من الجوائز السخيفة، لكنها لا تقدر بثمن بالنسبة لي، ليس لأنها كانت ذات قيمة ما ولكن لأنها كانت دليلًا على هوسي الخفي، على آفة جَمْع كنت أمارسها بسرية دقيقة ومتعجرفة، في مأمن من أعين الآخرين. أو بالأحرى: أمام تلك النظرات، غير القادرة على الشك في هوسي بالقنص، وهي إشارة صغيرة لكنها بليغة إلى أن حياتي بأكملها يمكن أن تكون، كما كانت، شكلًا ضارًا من الاستيلاء، استراتيجية اختزال العالم إلى مكان يصطاد فيه القراصنة، مكان لازم بالنسبة لي، لا يمكن أن يكتشفه الآخرون.

عندما أنهيت تدوين حكايات كلتا القائمتين، اتضحت الشبكة خيطًا تلو الآخر.

آه، يا عجبًا من هذه المحسوبية الحاقدة، ويا لها من شفافية في الدوافع، ويا لها من أعطيات متواضعة لكنها محتالة، رشاوى، صفقات رابحة، وظائف بدون عمل، عبر تسعة وسبعين وكيلا فقط ممن كانت تسميهم "مارثيلينا دي لا أو" في زمنها البطولي وببلاغة فظيعة: "آكلو ميزانيات الثقافة".

القاسم المشترك لتلك اللوائح، كما قلت، هو أنهم كانوا جميعًا أوفياء لي وأصبحوا الآن يرمونني بسهامهم. لم يكن أحد يعرف حكاياتنا الصغيرة، لذلك اعتبر عموم الناس انقلاب كل تلك التوقيعات ضدي فضيحة كبيرة. لقد اكتسبوا مصداقية إضافية، لأن الأمر يتعلق بأناس كانوا إلى حدود تلك اللحظة أوفياء لي. أما تغييرهم لأقمصتهم فلم يكن له تفسير آخر غير فداحة الخطأ الذي ارتكبته.

يمكنني أن أضع هنا ما أعطيته لكل واحد وما أخذته منه، لكن سيكون ذلك شططا في استغلال هذا الفضاء دون تحقيق أيّ إمتاع. من الأفضل أن أقدم ملخصًا إحصائيًا وأخلاقيًا عن الموقعين، على طريقة نيقولا كوندورسيه وجداوله حول احتمالية تكرار بعض السلوكيات داخل مجموعة من الأصوات المسجلة.

قليل من التعددية، وكثير من التكرار، ينبغي أن أقولها.

من بين تسعة وسبعين كاتبًا وقعوا من أجل الإطاحة بي، كانت هناك تسع عشرة امرأة. ومن بين هؤلاء النساء التسعة

عشر، عشرة سبق لي أن نمت معهن، أما التسعة المتبقية فيكبُرنني بكثير، أي بما يكفي كي لا يغرينني كما أغرتني مارثيلينا ذات زمان. نشرت لهن جميعهن، التسع عشرة، كتابًا أوّلَ، ولم أنشر لهن كتابًا ثانيًا. اعترفت لهن جميعن، في الأماكن التي كان لي فيها تأثير، بقيمة كتبهن المنشورة، ولكن دون أن أثني عليهن الثناء الذي كن يتوقعنه؛ أي اعتبارهن كاتبات كبيرات، إلخ... لسبب واحد صغير: لأنهن لم يكن كذلك. إنني أكتب بدافع الغضب، وعلى القارئ أن يضع هذا في حسبانه حتى لا يأخذني كثيرًا على محمل الجد، لأنني لست جادًّا. لكن هذا ما يمكنني قوله دون أن أبتعد كثيرًا عن الحقيقة المتعلقة بلائحة الكتَّاب الذين وقعوا أسفل ذلك البيان ضدي، متناسين، وربما متذكرين، أيامنا. لن أقول أكثر من هذا.

من بين الموقعين الستين المتبقين، ثلاثة عشر سبق لهم أن عملوا معي وتم طردهم. ومن بين السبعة والأربعين المتبقين، سبعة عشر حصلوا على منحة جامعية وضيّعوها، وحاولت من جانبي أن يعيدوها لهم، أو كذلك قلت لهم. وتسعة عشر من الثلاثين المتبقين، رفضَتْ مطبعة الجامعة التي أترأس هيئة تحريرها نشر كتبهم. وواحدٌ من بين الأحد عشر المتبقين، كان شقيقَ مساعدةٍ لي أسأتُ معاملتها بتحرشي بها. بقي عشرة. كان آخرُ قد ضيَّع رحلة بسبب إهمال إداري لامني عليه في الصحافة. بقي تسعة. آخرُ أغرِم بي بشكل كارثي، وكان التالي بعده محبًّا له. بقي سبعة. من بين السبعة الباقين، أربعة كانوا

كتابًا قدامى، خصومًا قدامى، أصدقاء قدامى، خصومًا لصديقي المهندس رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. بقي ثلاثة. واحد من هؤلاء الثلاثة الباقين كان شاعرًا يعيش من عدم كتابة الشعر، وتوقيع المقالات الصحفية. بقي اثنان. أحدهما كان من البقايا الكحولية لحركة ٦٨. بقي واحد.

الواحد المتبقي كان هو فولتير. كان عبقريًّا، وهو مركز إعجابي الحقيقي، وخوفي، وحسدي وهواجسي.

كنت معجبًا به وخائفًا منه. ليس من الصعب أن نفهم كيف أكون معجبًا به وخائفًا منه في الوقت ذاته. لاحظت حجم عبقريته ويمكنني قياس حجم تهديده. كان، على الأقل، يبشر بعبقرية في مجال اللغة، ولكنه في الحياة اليومية كان ذا طموح مبتذل، وكان انتهازيًا جادًا وساخرًا مثلي، لكنه كان أصغر سنًا وأقدم في شطرنج الأحقاد الأدبيّة وحب السلطة والشهرة والتأثير والاعتراف.

كان فولتير فريدا من نوعه، منافسًا حقيقيًا. عرفت منذ اللحظة التي رأيت فيها اللائحة أنه هو المحرض الحقيقي على كل ذلك، قائد تلك الأوركسترا التي ضُبطت إيقاعاتها ببراعة ضدي.

في تلك اللحظة -أذكر ذلك- سميته فولتير. فعلت ذلك تكريمًا وتخليدًا لذكرى كاهن مثقف قديم، من محبي الفرانكوفونية، وتقليدي مخلص لمذهب الكاردينال "لوفيفر".

وقد صرّح ذات مرة، بشكل لا يزال يرن في أذني، أمام عيني مارثيلينا المفتوحتين: "فولتير هو المؤلف الحقيقي لكل شيء، إنه مدمر العالم المسيحي".

كان يقصد أن فولتير ببلاغته، لا أحد غيره، من فجَّر أركان الإيمان في الغرب بالديناميت، وفتح المجال واسعًا أمام المعصية الحديثة، الخالية من الأحلام، والعقلانية، والمحرومة من أسرار الألوهية وعزاء الآخرة.

كان تأثير فولتيري علي أنا هو نفسه التأثير الذي ينسبه فيلم شهير إلى "أنطونيو ساليري" عندما وقعت في يديه، لأول مرة، النغمات الأصلية لـ "الوحش"، ذلك "المخلوق" الصغير الذي رآه يركض، حسب الفيلم، مثل طفل أصلع بذيء عبر ممرات القصر والذي أخذ اسمُه، "وولفغانغ أماديوس موزار"، طريقه نحو الخلود.

وقد لمحْتُ شيئًا مشابهًا للمقامات القوية التي تعرَّفها "ساليري" بعينه المجردة في تدوينات "موزار"، في السلسلة الأولى من القصائد التي أرسلها فولتير، بتواضع ماكر، إلى هيئة تحرير مجلة الجامعة، مع مقال لامع حول سمنة "ليثاما ليما" والامتداد النهم لكتابته النثرية.

كان فولتير آنذاك في العشرين من عمره، لكن نضجه الأدبي كان واضحًا. لم يكن يميل إلى التصنع في الأسلوب وفظاعة الموضوعات الجديرة بسنِّه، بل بدلًا من ذلك كانت كلماته ترن

دون تكلف ولها شفافية ظلت تنعكس لفترة طويلة من خلال تألق نتائجه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يكفي، يكفي!

كنت لا أزال عاريًا في الصالون وعلى وجهي ملامح مجنون من جراء هذه الحالة، حين ظهرت زوجتي الجميلة الطويلة والمشرقة أسفل الدرج، حافية القدمين، ملفوفة برداءها الحريري الأزرق، وقد نامت جيدًا ورائحتها طيبة.

صرخَتْ عندما رأتني صرخة وكأنها في بيت مسكون.

- هذا أنا -قلت لها- لا عليك.

- لا. لست أنت -قالت لي- لست أدري من أنت. على وجهك علامات من هو مصاب باحتشاء المساريق.

تحرك بداخلي شيء عميق وانتحاليٌّ بسبب تلك العبارة الغريبة كليًّا عن معجم زوجتي. فكّروا مليًا فيما قالته: "على وجهك علامات من هو مصاب باحتشاء المساريق". كنتُ قد استعملتُ عدة مرات كلمة احتشاء وسمعتُها كذلك تقولها، بشكل مألوف، كانت تقول "أنا محتشية بما سمعته للتو". لكن لا أنا ولا هي وصفنا قط كلمة احتشاء بذلك الزخم الجدير بطبيب وثني أو بشاعر ملعون: احتشاء مساريق.

استنتاج: شخصٌ ما بعيدٌ عن عاداتها اللغوية، قال مرة تلك الكلمات أمامها فتبنتها هي وكأنها لها.

لم تكن كلماتها.

- إنها تنتحل! قلت في نفسي. إنها تخونني! شخص آخر قد استقر في رأسها!

عرفت من يكون ذلك الآخر وكأنني في زوبعة، ففقدت وعيي وارتميت على الأريكة، عاريًا، وخصيتاي في الهواء.

٥

طالب الموقعون على الرسالة بأن أعيد الجائزة وأن أستقيل من منصبي في الجامعة. (كنت مديرًا للشؤون الثقافية في الجامعة، إمبراطورية صغيرة).

عندما استفقت من إغمائي، وجدت زوجتي بجانبي وكأنها بجوار حيوان كبير ميت. أرادت أن تلمس حلقي بيدها الموديليانية، لكنني رفضتها. صعدت الدرج عاريًا كما كنت، غير آبهٍ بنظرة زوجتي المرتجفة، لكنني واثق من أنها كانت تنظر. رأيتُني مثلما -ربما- كانت تراني في تلك اللحظة، وأنا أصعد السلم، عاريًا، مديرًا لها ظهري، مشعَّرًا ومتين البنية، مثل الإنسان المنتصب (Homo erectus)، موضِّحًا بخطواتي أن شيئًا جديدًا وبركانيًا قد ولد بداخلي: معركة واترلو (Waterloo) الغيرة.

صعدت الدرج مثل عائد من حفلة مزيفة أو ذاهب إلى معركة خاسرة مسبقًا. كل شيء كان بطيئًا بداخلي، كنت أنهار من الداخل، مضطربًا، كما اعتاد الشاعر من مدينة "خاليسكو"

أن يقول، لكنني كنت أصعد الدرج بسعة، في اتجاه الحمام، في اتجاه الدُّش، والشامبو وشفرة الحلاقة تحت الماء، وقد بدأ ذهني يفكر في البذلة، في القميص، في ربطة العنق المناسبة التي كنت سأرتديها ذلك الصباح، بأناقة متأثرة، لأقضي يوم هزيمتي.

فكرت في أن تلك الازدواجية الجامعة بين الانبطاح وقوة الهمة، هي التي تضمن لي الصمود أمام ما يهاجمني. كان ذلك تعبيرًا متطرفًا عن اختلال نظام حياتي، وحنَقي العملي المعروف الذي أجعله في خدمة انعدام المشاعر، وهوس بحياةٍ مدينةٍ للعدم. في الحقيقة، لم يكن هناك أيّ شيء بداخلي، كان كل شيء بالخارج.

اندفاع من الخارج، بطء من الداخل، هذا أنا.

لقد شققت طريقي في سرقة الآخرين دون أن أهتم بثروتي الخاصة. كنت طموحًا من دون طموح، ساحرًا من دون سحر، متلاعبًا بالوسائل من دون غاية تُسوِّغها. في النهاية، في البداية، كنت لا محالةَ ما كنتُه: كاتبٌ من دون عبقرية مُنِحَ موهبة التعرف على عبقرية الآخرين. كل شيء يُحَل في النهاية في شغف الكتابة من دون التوفر على موهبة القيام بذلك. بعد خسارة هذه المعركة الأصلية، كل ما تبقى انتصارات مكلفة، أو هزائم متفرع عنها الشغف الثانوي بالنقل من الآخرين.

آه من حاجتي إلى أن أنقل من الآخرين، إلى أن أكون ما

أُعجبُ به، إلى جعله ملكًا لي. أمضيت سنوات أخفي ذلك الضعف والآن تسقط عليَّ أقنعة التنكر، وهي ذاتها أنا شخصيًّا، أسير مثل إنسان بدائي عبر الدرج أتجه إلى الحمام، ثم أخرج من الحمام في اتجاه الحياة مثل مسؤول تنفيذي مليء بالحماس.

تأخرت نصف ساعة على الإفطار مع صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. عندما خرجت من الحمام تلقيت مكالمة من جوليتا، زوجته، تسألني ما إذا كنت سأحضر، لأنها أعدت لي بيضًا مسلوقًا وهو الآن يبرد، وتقول إن زوجها قد أتم أكل طبقه من الجرانولا.

كلما ذهبت إلى منزل رئيسي وصديقي، كنت أطلب بيضًا مسلوقًا، لا كإيماءة إليه شخصيًا، ولكن كإشارة إلى زوجته، التي كانت تكره الطبخ في الصباح، مثلما تكرهه في المساء وفي الليل. الشيء الوحيد الذي تحب إعداده، لأنه لا يحتاج إلى أيّ مجهود في الطبخ، هو البيض المسلوق لأنها إنما تضعه في وعاء من القصدير مليء بالماء المغلي وتتركه يطبخ لمدة دقيقتين إلى ثلاثة، ثم بعد ذلك تدخل في حالة من الذعر بحيث لا تعرف ماذا تفعل لا بالوعاء ولا بالماء المغلي ولا بالبيض. حتى لا أتحدث عن سمعتها كطباخة كما يتفاخر بها زوجها المهندس في كل مكان، ينبغي أن أقول إن لزوجة صديقي نوايا مقَنَّعة عني، مقَنَّعة بداخلها، أمام زوجها، ومقَنَّعة في عالمها المليء بالصباحات المملة والخيالات الروتينية، لكنها غير مقَنَّعة بالنسبة لي أنا الذي آكل بيضها المسلوق في شكل من

سيميائية الرغبات شبه المطبوخة. كان البيض المسلوق دائمًا محضّرًا مسبقًا، لكنها هي تكون دائمًا ممشوطة الشعر ومهندمة لتراني كيف سآكله.

قلت، لكي أُسوِّغ تأخري، إن صداعًا نصفيًّا يأكلني. تأثرَتْ لحالتي، أما زوجها فلا.

- هيا بنا. قال دون أن ينتظر جوابي، ثم خرج إلى السيارة والسائق اللذين كانا ينتظران عند باب منزله.

ركبت سيارة صديقي -لم يعد الآن صديقي- نتنًا ومعَطرًا، ومنهارًا وواقفًا. بمجرد أن صعدت أخبرني بأن الأمر محسوم:

- عليك أن تتخلى عن الجائزة.

أجبت أنه بإمكاني الإدلاء بالأسباب الواهية التي هي وراء كل واحد من الموقعين أدناه التسعة والسبعين، وإعلان المعركة في الصحافة. وأضفت أن الجائزة غير قابلة للتخلي عنها.

من الناحية التقنية، كان ذلك صحيحًا. لقد توقعتْ مارثيلينا وماتورانا أن الأمر سيكون كذلك منذ تأسيس الجائزة. فقد تم إنشاء جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب، في فترة نزاع ثقافي حاد. لدرجة أنه لم تكن هناك جائزة لم تتسبب في فضيحة ما. والسبب في ذلك هو أن جميع الجوائز تمنحها الحكومة، وأصبح الاحتجاج على الجوائز نوعًا من الاحتجاج على الحكومة، التي لم يكن من الممكن آنذاك مهاجمتها

وجهًا لوجه. وكان السياسيون الذين يقاتلون باستماتة من أجل السلطة داخل الحكومة يختارون واجهات جانبية للقتال، مثل الثقافة، لتفريغ ضغائنهم، وتحريض المواطنين على الاحتجاج ضد التحيز السياسي والأسباب الخفية وراء الجوائز الأدبيّة والتعيينات الثقافية.

كثيرًا ما كانت الفضائح تنتهي بعواصف في الصحافة وبتخلي الفائز عن الجائزة بشكل هادئ، أو بتنازله مسبقًا، حتى لا يثير "المزيد من الموجات"، بحسب لغة ذلك الوقت. وكانت التنازلات تؤكد أن الجوائز جزء من النهب السياسي ويُتعامل معها على ذلك النحو: إذا كان تقديمها يثير مشاكل أكثر من تلك التي يحلها، فإنها تسير نحو الوراء. أراد كل من مارثيلينا وماتورانا الخروج من تلك اللعبة وتأسيس أخلاقيات جديدة للجوائز الأدبية: أخلاقيات الاستقلال السياسي (كذا)، والتعددية وحرية لجنة التحكيم، كما ذكرتُ، وأن نتيجتها لا رجعة فيها. لذلك قرَّرا أنها جائزة غير قابلة لأن يُتخلى عنها.

مجرد كلام، قد يقال. طبعًا، ولكن بالنسبة للفترة التي كنتُ فيها أنا، كانت جميع البراهين مناسبة، بما فيها ذلك الذي مفاده أن جائزة مارتين لويس غوثمان من الكتَّاب إلى الكتَّاب لم يتنازل عنها أحد قط طيلة السنوات الأربع والعشرين من وجودها، إذ إن قانون الجائزة نفسه يمنع ذلك، وكنت أنا الحاصل على الجائزة رقم خمسة وعشرون. ربع قرن! تقريبًا هرم "خوفو"! لا يمكنني التخلي عنها.

قلت تلك التُّرَّهة وكأنني أريد ترك الجائزة جانبًا لأنتقل إلى ما يهمني، وهو منصبي في الجامعة، إمبراطوريتي الصغيرة.

هذا ما يفسر حديثي الطويل التكميلي ذلك اليوم حول العلل الواهية للموقّعين. قلت وأنا أخاطب صديقي المهندس، أكثر مما أخاطب رئيس الجامعة، إنني أستطيع أن أثير في الصحافة اليومَ نفسه، تفسيرًا مدمّرًا لاتهاماتي بالانتحال، وأفضح بالمكشوف أخلاق تلك الشرذمة الشنيعة.

- أنت لم تفهم شيئًا -قال صديقي المهندس، أكثر مما قالها صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي- لقد وصل هذا الخبر إلى الأعلى. وقد اتصل بي السيد الوزير، قلقًا. ولم أعرف ماذا أقول له.

الوزير هو وزير الداخلية الذي كان صديقي المهندس رئيس الجامعة -لم يعد الآن صديقي- يلعب معه "على مستوى عالٍ". وهذا كان يعني في بلد آنذاك، كما هو الحال في بلد اليوم: أن صديقي كان يؤيد ترشح صديقه الوزير لرئاسة الجمهورية.

ثم قال رئيسي وصديقي -لم يعد الآن صديقي- ما لم أظن قط، حين كنت أعمى، أنه سيقوله. قال:

- دفاعًا عن الجامعة يجب أن تتنازل عن الجائزة وعن المنصب.

قال هذا المقطع الأخير بنبرة ماكرة، بخط مائل. جعلني الخط المائل أفقد صوابي، إذ ما زال بداخلي غضب الإنسان

المنتصب، فأجبت دون أيّ مراعاة:

- لا يا مهندس ورئيس الجامعة. لن أتخلى لا عن الجائزة ولا عن المنصب. لقد فعلنا أشياء كثيرة معًا أنا وأنت، ولا يمكن أن أدفع ثمنها بمفردي.

استدار للنظر إليَّ، مرتابًا ومحْمرًّا. تلك كانت حالته كسياسي سيِّئ: وجهه يخون عواطفه، يحمرُّ من الغضب أو الحياء أو الخجل، لونه يفضح سريرته. قال:

- هل تهددني، أيها الوغد؟

أجبت بعبارة محرَّفة، مفضلة في حكايتنا:

- الأصدقاء لا يهددون.

(العبارة الحقيقية هي "الشجعان لا يقتلون").

فأجاب:

- ماذا تقصد إذن؟

فقلت:

- أن نبحث عن حل عادل.

- عادل أيها الوغد؟ عادل؟ أنت المسؤول الوحيد عن هذا.

- لقد كنت مخلصًا لك إلى درجة الجريمة. ذكَّرته واستدرت لأواجهه بنظرة أعتقدها نظرةً فولاذية.

أصبح شاحبًا وفهم القصد.

سرَّني أن يفهم هذا الوغد إلى أيّ مدى كان سيدي، وإلى أيّ مدى، أو في أيّ لحظة، بدأ يصير عبدًا لي.

لشرح جدلية العبد والسيد هذه التي تجمعنا نحن الاثنين، ينبغي الخروج قليلًا عن الموضوع.

أثناء وقوع أحداث هذه القصة، كنت لمدة ثلاث سنوات أشغل مهمة المنسق بين المستشارين، ومنسق الجناح الثقافي للجامعة. قلتها من قبلُ: إمبراطورية صغيرة. وكانت المصالح التابعة لي تشمل دارًا للنشر، وثلاث مجلات، ومحطة إذاعية، وقناة تلفزيونية، وثمانية متاحف، وأوركسترا سيمفونية، وفرقة باليه، وفرقة مسرحية وثمانمائة منحة توزع على المبدعين.

كان مكتبي ومكتب رئيس الجامعة متجاورين، ويوجدان في الطابق العلوي من برج رئاسة الجامعة، المعروف باسم "البرج العالي". من قاعة الأكل الواسعة في آخر طابق من ذلك البرج، يمكن رؤية جهتين من الجهات الأربعة الأساسية للحرم الجامعي الذي تُدبَّر أمورُه من هناك.

كانت تُدبَّر حقًّا. كانت تصل، كل يوم وفي كل الأوقات، إلى مكاتب البرج العالي تقارير مفصّلة عما كان يحدث هناك في الأسفل، في الصالات والممرات، في المقاصف والحدائق، ولكن خاصة، في مكاتب الموظفين والبيروقراطيين أمثالي: مديرين، ومنسقين، ورؤساء، ومديري مدارس وكليات،

والمصدر الأكيد لكل الخلافات، الكبيرة والصغيرة، التي تميز الإيقاع الحقيقي لأنفاسنا، روحنا الحقيقية، مدرستنا الأم.

بناءً على اقتراح مني، عمل صديقي المهندس، لا صديقي رئيس الجامعة -لم يعُد الآن صديقي- على تجويد خدمات شبكات التجسس الداخلية للمؤسسة حتى اقتربَتْ من درجة الكمال: أعجوبة هندسية.

سنوات كثيرة من قبل، وفي صالون مارثيلينا وماتورانا، سمعت من فم أحد أبطال التجسس الحكومي -أسطورة الجمهورية- أن الحرائق السياسية ينبغي إخمادها وهي بعدُ أعواد ثقاب، أي في شراراتها الأولى، وقبل اللهب الأول. فكل الصراعات الكبرى والتحركات الواسعة التي عرفتها الجامعة، وتحصل بمعدل اثنتين كل عشر سنوات، تبدأ دائمًا بأحداث صغيرة لم تعالج في الأصل، لأنها لا تكون معروفة جدًّا.

أنا الذي نقلت هذا الإجراء الهائل المفعم بشيء من جنون العظمة، دون التصريح بمصدره، إلى صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. نقلته على الخصوص إلى صديقي المهندس، أكثر من أنني نقلته إلى صديقي رئيس الجامعة، فتبناه المهندس بشدة كمن يبني كاتدرائيات. بعد أسابيع قليلة من استقرارنا في البرج العالي، كان بإمكاننا سماع المحادثات الهاتفية الخاصة بـإدارة الجامعة بأكملها، بما في ذلك قادة النقابات. وبدأت تصلنا تقارير عن الحياة الخاصة

للجميع، ولا سيما تخصص الحرم الجامعي في تفشي الزنا بين الأجيال، أعني، الأساتذة مع الطالبات، والرؤساء الكبيرين سنًا مع الكاتبات الشابات، ونسبة غير متوقعة من علاقات تزاوج في منطقة الحب التي لا تجرؤ على ذكر اسمها.

كان الهيجان الغرامي في الحرم الجامعي مثيرًا للإعجاب، وكان ينقل إليَّ شعورًا يوميًّا غريبًا بأنني أعيش في خليّة من مشاعر مشتعلة، وعلاقات حب طرية، وأحقاد إجرامية، ومثلثات شوق، وكتائب من أزواج يبحثون عن شركاء غراميين.

كان صديقي المهندس يخفي الكثير من المواهب السرية، أكثر من صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. إحداها أنه يفهم الشبكات الإدارية للسلطة ويفهم ما يسميه إيروتيك أو غرام السلطة البيروقراطية، وهي عبارة أهديتُها له فتبناها واعتبرها دائمًا، منذ تلك اللحظة فصاعدًا، مجرد عبارة خاصة به.

إيروتيك أو غرام السلطة البيروقراطية.

آه، كم من الأشياء الأساسية في حياة الكثيرين يمكن لتلك القوة أن تُقيمها وتُبطلها. كم من الكتّاب حازوا على جوائز وكأنهم يستحقونها، وكم من الأكاديميين المتوسطين تم الاحتفاء بهم على أنهم أعمدة للمعرفة، وكم من العلماء نالوا إعجابًا لم يحققه أقرانهم بفضل اكتشافات علمية لم يقوموا بها. كم من الجوائز، كم من المِنح، كم من الوظائف غير

المنتِجة دُفعت مقابلاتها بسعر الذهب. وكم من المنشورات، وكم من ميزانيات رُصدت لإذاعة لا يسمعها أحد، وتلفزيون لايشاهده أحد، وفرقة باليه وفرقة مسرحية ترقص وتمثل في قاعات فارغة تابعة لنفس المؤسسة الممولة.

لا توجد جهة تتوفر على كل هذه الميزانيات الحرة لتوزيعها على الثقافة كما هو الحال في الجامعة. لم يكن من قبيل الصدفة أن يجرفني إلى هناك ميلي إلى السطو على ملك الغير، كمن يتبع تيار نهره الداخلي نحو منحدرات وبرك النهر الخارجي الذي هو في حاجة إليه. خارج الحكومة، لا يجتمع ذلك العدد الهائل من الطامعين والمتنافسين على الميزانية في أيّ مكان مثلما يتكتلون في ضفاف الجامعة. لا أحد يفهم ذلك أفضل مني، ولكن لا أحد يتطلع إلى نفس القدر من الإحساس بالبيروقراطية الشبقية وفوائدها السياسية مثل صديقي المهندس رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي.

في أول اجتماع عمل لي معه بصفتي المنسق الثقافي للجامعة التي يرأسها، قال لي:

- أريد منك أن تضع تقويمًا دقيقًا للجوائز ولمناصب الشغل التي هي من نصيبنا.

قال: "من نصيبنا"، وكأننا في طابور أو ننتظر توزيع تركة. لا بد أنه لاحظ في تقاسيم وجهي شيئًا من الغباء، لأنه كرّر أمره وسألني، بصبر نافد، إن كنت أعرف ما الذي نتحدث عنه. كان

من الواضح أنني لم أكن أعرف عماذا نتحدث، لذلك تولى بنفسه مسؤولية تبديد جهلي بالأمر. وضع ثلاثة ملفات على الطاولة. يضم الأول قائمة وتقويمًا عن الجوائز والأوسمة الثقافية التي تمنحها حكومة الجمهورية والجامعة نفسها كل سنة. والآخر تقويما زمنيًا للتغييرات الإدارية لمديري المدارس والكليات بالجامعة.

- أريد منك أن تنظر في هذه التقويمات وأن نَضع قائمة بمن يجب أن يفوز بالجوائز، ومن يجب أن يصل إلى المناصب الإدارية في هذه المؤسسة الدراسية.

لابد أنني تابعت تعليماته بوجهي الغبي، لأن صديقي رئيس الجامعة -لم يعُد الآن صديقي- قال لي.

- هذه أعلى مؤسسة دراسية أيها الوغد، ولكنها فوق كل شيء أعلى مؤسسة للجوائز والمناصب. أريد أن أعرف بالضبط ما هي الجوائز وما هي المناصب التي سنعطيها ولمن هذه السنة، والموالية والموالية. لا أستطيع الاحتفاظ بالعديد من الأسماء في ذاكرتي، أريدك أن تكون مساعدي في الذاكرة.

لابد أنني تابعت بوجهي الغبي، لأنه أردف:

- ما أطلبه منك هو أن تكون لديك قائمة دقيقة بما يمكننا نحن تقديمه: الجوائز والمناصب. أريد منكم إعداد ملف بالجوائز وملف بالوظائف التي يمكننا تقديمها داخل الجامعة وخارجها. وملء كل تلك الجوائز وكل تلك المناصب

بمرشحينا. هل هذا واضح؟

أومأت برأسي، مبهورًا.

ثم أخذ الملف الثالث وألقى به أيضًا على الطاولة.

- هذا الملف الأخير أعددته أنا. أريد منك أن تفحصه وتحافظ عليه كسِرٍّ من أسرار الدولة. إنها شبقيتنا السرية.

كانت كذلك فعلًا. فالملف يضم قائمة الامتيازات التي تدين بها الجامعة للحكومات الأربع السابقة، أي الامتيازات التي قدمها الرؤساء وكتَّابهم، وبشكل عام، المؤثرون وذوو النفوذ في ذلك الوقت للجامعة. الرؤساء وكتَّابهم دُوِّنوا في أربع صفحات، بينما المؤثرون الذين تدين لهم الجامعة في ثلاثين صفحة.

بعد ذلك قال لي المهندس الرئيس:

- انظر أيها الوغد، هذا بلد مؤسسات، ويعني ذلك: من يهيمن على المؤسسات يهيمن على البلد. ما يتعين علينا فعله هو الهيمنة على المؤسسات الثقافية. أن نقرر بوسائل، لا يراها الغرباء لكننا نحن نراها واضحة أمامنا، من هم الذين سيحصلون كل سنة على الجوائز الوطنية في العلوم والآداب والفنون. ومن هم الذين سيدخلون الكلية الوطنية. ومن سيشكل مجلس إدارة جامعتنا، وأولئك الذين يقررون من سيكونون مديري الكليات، ومن يمكننا تعيينهم في مجالس

إدارة جامعات عمومية أخرى ومراكز أخرى للتعليم العالي، والتي يمكننا أن نوسع إليها نفوذنا للتعيين والمكافأة. وعلينا أن نكون ممتنين لأولئك الذين ساعدوا هذه المؤسسة، وسهروا بدقة من أجل المصالح التي تربطهم بها. هل الأمر واضح؟ يجب أن يكون كل شيء في هذه الملفات، حتى لا نقع في أيّ خطأ. أكملها بضميرٍ حي، لا أريد أن ينقص أيّ شيء.

خرجت من أول اجتماع عمل كمن خرج وقد تلقى صيغة العالم. عالمنا نحن. كان عالمًا ضخمًا، صغيرًا في بعده النسبي مقارنة بميادين قوة أخرى، لكنه عملاق في سلطته التقديرية وقدراته على اتخاذ القرارات دون استشارة أية جهة. بتوضيح أكثر: يكون هناك، كل سنة، شيء يشبه إمبراطورية صغيرة يقتضي الأمر توزيعها.

لم يكن أحد يفهم تلك السلسلة من الامتيازات البيروقراطية الدقيقة، ولكنها موضوعية، أفضلَ من صديقي المهندس، أكثر من صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. وجئت أنا مثل مروضٍ عجول مبتدئ إلى مدرسة التكاملات والمتجهات في شركة مارثيلينا وماتورانا. ورأيت من الشرفة الصغيرة لجائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب، حجم التلاعب بالجوائز ومقدار البيروقراطية التي تحفُّ الشهرة المؤقتة للمؤلفين. لكنها كانت مجرد جائزة، وإن كانت الأهم، وكانت الشبكة مجرد شبكة، وإن كانت الأكثر شهرة. لم يكن لذلك التلاعب أيّ علاقة بالميزانيات الحرة،

والبيروقراطية المالتوسية، والوظائف الحقيقية القليلة العمل الجزيلة الراتب، والأوقاف المزيفة التي كانت الجامعة قادرة عليها.

لست أدري كم عدد الرعشات الجنسية الدماغية التي تركتُها على شبكات التأثير التي وضعها صديقي المهندس ورئيس الجامعة -لم يعُد الآن صديقي- أمامي في تلك الملفات. سرعان ما اكتشفَتْ نظرتي، وهي نظرة من يهوى الجمع، المجموعات وتقاطعات هذه الأصناف الغنية، الغنية في ذاتها والغنية أيضًا في خيوطها الخارجية المتجهة نحو العالم المقبب للجمهورية، والذي كانت الجامعة مستقلة عنه بكل فخر، وغير مبالية به، ولكنها كانت مرتبطة بمصالحه وعملائه بسلاسل حديدية دقيقة غير مرئية ولا يمكن كسرها.

بعض الأمثلة:

كانت في مجلس إدارة الجامعة ثلاث شخصيات تمثل بشكل مضبوط رأي ثلاثة رؤساء جمهورية سابقين ما يزالون أحياء. كانت ابنة وزير للتربية والتعليم تعمل في مكتب العلاقات العامة في رئاسة الجامعة. وتتدرب على منصب المحافظ في متحف الجامعة ابنة أغنى رجل في المكسيك. ولم تكن هناك مجموعة شركات ذات أهمية لا تتوفر على تمثيلية ما في المكتب المسير لفريق كرة القدم. وكانت كل كلية امتدادًا وقاعة انتظار في تخصصها: كليّة الطب لوزارة الصحة؛

كلية العلوم القانونية للسلطة القضائية؛ كلية الهندسة لوزارة الاتصالات والأشغال العمومية. بوصفي منسقًا، لا يكاد يكون لي منافس في القطاع العام. كان دكاني الصغير بفضل موارده وأعرافه وتأثيره البيروقراطي هو وزارة الثقافة الحقيقية في البلاد.

أُنهي الاستطراد هنا، وأعود إلى النقطة التي كنت فيها.

- ماذا نقول، إذن، للصحافة؟ قال صديقي رئيس الجامعة.

أعجبتني صيغة الجمع في سؤاله. اعتقدت أنه كان يمنحني دعمه، وأن دوره قد حان هذه المرة ليكون عبدًا لي. لكن لا. ليس الأمر كذلك بالضبط.

٦

يوم الأربعاء الموالي، بعد محادثة مع صديقي المهندس ورئيس الجامعة -لم يعد الآن صديقي- قدمتُ استقالتي من منصبي في الجامعة. وتنازلت أيضًا عن جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب.

طلبت من صديقي أن يترك في يدي التوضيحات التي نحن مدينون بها للصحافة، مما خفّف عنه. أو هذا ما جعلني أشعر به.

لذلك ابتكرت إستراتيجية تقديم السرقة الأدبيّة التي فضحها فولتير على حقيقتها: إنها تكريم. تكريم للغيرة الفنية، أي للإعجاب الذي كان بعيدًا عن أن يكون خدعة أدبية، بل كان في الواقع استراتيجية تقدير.

كانت الحجة التي خطرت على بالي كالتالي:

أود أن أقول إن فولتير تسرّع، بكشفه النقاب عن روايتي، عن التكريم الذي كنت أنوي تقديمه لمارتين لويس غوثمان

في خطابي الذي كنت سألقيه بمناسبة استلامي الجائزة. أود أن أقول أنه، في ذلك الخطاب، كنت أنوي الاعتراف بما بيَّنه فولتير تمامًا، أي أنني بنيت روايتي من الداخل على خطوات رواية مارتين لويس، لأكون في ظلها وأعترف علنًا بحجمها.

كان غوثمان أحد الكتاب الكبار في المكسيك، ولكنه أيضًا واحدٌ من الأقل شهرة بينهم، أو الأكثر مساومة بسبب زلاته السياسية. كنت سأكرس خطابي عند تسلم الجائزة للاحتفاء بغوثمان من شواطئ التناصّ الأدبي. ما شجَبه فولتير وعدَّهُ خطيئة اقترفتُها كان سيكون في الواقع تكريمًا مني للكاتب، إذ إنني لم أكن أرغب فقط في إخفاء سرقاتي الأدبيّة من عالم غوثمان، بل كنت أنوي إعلانها كاحتفال بعظمته.

كنت قد دونت الكثير من الملاحظات حول مَواطن امتياز غوثمان أثناء انتحالي له. كان لدي، بالفعل، ملفٌّ منفصل يضم هذه الملاحظات التي هي، بالمناسبة، كافية لتكُون كتيِّبًا صغيرًا عن تأويل النصوص. فكرت في أنه يمكنني تقديم هذه الملاحظات للصحافة على أنها مشروع كتاب آخر، كتابٍ لي أصليٍّ، بمثابة تفسير تأويلي ودفاع أدبي عن سرقتي الأدبية.

خلاصة القول أنني فكرت في إخبار الصحافة بأن فولتير قد كان رائعًا في توقعه الهدف الذي كنت أصبو إليه. ولإثبات هذا الأمر، كنت سأضع بين أيدي الصحافة المستندات الأصلية المحفوظة لدي، والتي تثبت القصد الحقيقي لخطتي.

طلبت من صديقي رئيس الجامعة أن يعلن عن ندوة صحفية في الواحدة زوالًا من ذلك اليوم نفسه، مؤكّدا على أنني سأقدم خلالها مادة مكتوبة أصلية كافية لتبديد كل الشكوك.

وافقَ.

عدت جريًا إلى منزلي. كانت زوجتي تبكي في الصالة، أمام القائمة المزدوجة للذين استفادوا من أعطيات الجامعة التي تركتها هناك، في كراساتي المرموقة. لعلها كانت تبكي على لائحة النساء المذكورة فيهما. وعلى علاقتي بهن. اعتبرت هذه الفرضية محتملة، في تلك اللحظات التافهة بالنسبة لي. توجهت مباشرة إلى حاسوبي، وكأنني أبحث عن بندقية. ثم كتبت، في الساعة الموالية، مسودة خطاب قبول جائزة مارتين لويس غوثمان، والتي كان من المقرر تسليمها يوم الجمعة القادم.

كتبت مثل حيوان هامستر ما قلته من قبل: أن سرقتي الأدبيّة كانت تكريمًا تأويليًّا. وسيتم الكشف عنها، خطوة بخطوة، في كتابٍ ثانٍ، سيتم الإعلان عن موضوعه خلال خطاب قبول الجائزة. عندما كتبت خمس صفحات من الخطاب المزعوم، ١٥٠٠ كلمة، توقفت تاركًا جملة في المنتصف. طبعت المسودة غير التامة، صححتها بخط يدي مستعملًا قلم شيفر ورثته عن مارثيلينا، وورثته هي عن ماتورانا. طبعت أيضًا أربع ملاحظات أصليّة لي حول مقاطع مختلفة من ظل الزعيم. وضعت كل ذلك في ملف وذهبت إلى الندوة الصحفية.

كانت زوجتي لا تزال تبكي عندما مررت عبر الصالة في طريق عودتي.

قلت لها:

- تحسنين البكاء، لكن بكاءك لا يدفع ثمن ما دمرتِه. أنت التي دمرت كل هذا دون أن تعي بالضبط ما كنت تفعلينه. حسِبتِ كل شيء خطأ. السرقة الأدبيّة التي تحدثتِ عنها، الانتحال الذي حدثتُك عنه والذي يتحدثون عنه اليوم، هو جزء من التكريم. تكريم! هذا ما نسيت أن أخبرك به. وأن الحديث عن هذا الانتحال هو مشروع كتابي الموالي!

كان ذلك أول بالون تجريبي أصدرتُه بخصوص سذاجة حُجَّتي.

- لقد حكيت ذلك لأنني غبية. قالت لي.

- حكيتِ ذلك لأنك كنت مغرمة -أجبتها وقد قلَبْتُ اعترافها لومًا- لكنك قلت ذلك بشكل خاطئ، لأنك لم تكوني تعلمين نهاية القصة.

- وما هي نهاية القصة؟ سألت رافعة عينيها الدامعتين الساذجتين والمستسلمتين نحوي.

- أنت صحافية -قلت لها- إذا كنت تريدين معرفة الحقيقة التي تنقصك، تعالي إلى الندوة الصحافية.

- هل ما تقوله حقيقة؟

- دائما أقول لك الحقيقة.

بدأت تبكي من جديد، آسفة الآن على عدم تصديقي.

من الواضح أنها كانت غبية. وأنا غبيُّها.

كان عدد الصحافيين الذين حضروا ندوتي الصحافية أكثر ممن حضروا مناسبة تعيين صديقي المهندس رئيسًا للجامعة. هذه الأمور دائمًا تقول شيئًا. يتملقون، ولو من أجل جعل الواحد معلقًا.

أعتقد أن خروجي الإعلامي الأول كان فعالًا. فقد زيَّنت هندامي الذي ارتديته في الصباح وكنت في أحسن حلة، رغم أني فككت شيئًا ما ربطة العنق لإضفاء لمسة من الاسترخاء والصراحة على حالة الاعتراف التي كنت فيها.

لم يكن فولتير من بين الحضور. هدأني ذلك. حضر مراسلو المصدر المألوفون، وكلهم تقريبًا من أولئك الذين يمكن ترتيب الأمور معهم بالمال. كما كان هناك أيضًا بعض الموظفين من تنسيقيتي وشبكة المتعاونات مع نفس التنسيقية اللواتي ينظمن الندوات الصحفية. كن جميعهن متوترات ويضحكن ضحكات مصطنعة.

حكيت هرائي بطلاقة مثيرة للإعجاب، في نظري، كالتالي:

- كل ما قرأتموه في الصحافة عن سرقتي الأدبيّة صحيح. ما عدا... أنه ليس سرقة أدبية. إنه تكريم. تكريم سري. استراتيجية

اعتراف. كل ما نُشر في الصحافة حول تلاعبي بـ ظل الزعيم صحيح. لكن هذا التلاعب لم يكن القصد منه أن يكون سرًّا بل أن يتم شرحه في كتاب ثانٍ على سبيل التكريم لمارتين لويس غوثمان. والدليل على ما أقوله هي المواد التي سأقدمها لكم اليوم، نصوصي الأصلية التي يمكنكم إعادتها بكل حرية. أقدم لكم، أولًا وقبل كل شيء، نسخة من خطابي، خطاب غير مكتمل، كنت سأقرؤه في حفل استلام الجائزة. أقدم لكم أيضًا نسخًا من أربع ملاحظات كتبتها بخط يدي حول الصعوبات التي واجهتها في مقاطع مختلفة من ظل الزعيم، لتحويل مادتها الأصلية إلى مادة لي، مشتقة منها. كما سترون، هي ملاحظات أُعِدَّت لشرح تكريمي له بواسطة التناص، وليس لإخفائها. إنها ملاحظات سُجِّلت لتوثيق عملية نقل العمل الأصلي إلى العمل المشتق، من عمل مؤلف عظيم إلى عمل مؤلف فرعي. هذه أوراق من ورشتي يمكنني تقديمها لكم كدليل على حسن نواياي. احكموا بأنفسكم أيها السادة.

لعلي لم أقنعهم بتلك الخدعة، لكنني أربكتهم. توافدوا جماعات على مكتبي للحصول على النسخ المصورة التي أقدمها لهم. وكأنهم يتسلمون مني مادة إخبارية. كانوا يحدثون صخبًا مناسبًا، وتشويشا لائقًا، كاد يُمكِّنني من الخروج من كل ذلك، لولا أن ظهر فولتير نفسه في الجهة الخلفية من القاعة، وهو يلوح بمكبر صوت.

ثم قال، بل صاح:

هل لديك أيضًا خطاب تقديري، تكريمٌ، لكل الأشياء الأخرى التي سرقتها؟ لسرقتك وتكييفك لـ"غاتسبي العظيم" في روايتك "الحب المفقود"؟ لسرقتك وتكييفك لأسبيرن بابرس في قصتك "أشباح"؟ لسرقتك وتكييفك لـ "بينما أنا أحتضر" و"بيدرو بارامو" في روايتك "شائعات"؟ أسألك، أيها الفاهم، لأنني سأنشر غدًا ثلاث مقالات حول هذه السرقات الأخرى التي قمت بها وسيتأكد وضوحُ ما هو واضحٌ.

انشر ما شئت -قلت- لكن لا تُسمِّني فاهمًا.

نتج عن ذلك ضحكٌ في القاعة كان لصالحي. لكن فولتير تابع:

- يمكنك صناعة نسخة مقنِعة عن نفسك. ما لا تستطيع فعله هو التوقف عن أن تكون من أنت.

أجبته:

- ما قلتُه الآن، مع الوثائق في يدي، هو الحقيقة.

أجاب فولتير:

- أنت ستكون دائمًا حقيقة مشبوهة. الحقيقة المشبوهة.

هذه الجملة الأخيرة قلبت كل التوقعات ضدي، بحيث أعيدَ ذكرُها في جميع قصاصات الأخبار في اليوم التالي.

الحقيقة أن فولتير اكتشف آليتي في الانتحال، الرقم السري للخزانة الفولاذية. لقد مكنَته موهبته وطاقته القتالية من قراءة

الآلية في رواياتي الأخرى. ساعدَته مكانته العلمية، والمكانة الشيطانية لمؤلِّف في سنه، على أخذ عينات من تلك الروايات، كما يقول الإحصائيون، أثناء بحثه عن آلية فنّي. وجدها في ثلاثة. في اليوم اللاحق، نُشر كشفه لسرقتي في الإمبارثيال، جنبًا إلى جنب مع دفاعي عن هجومه السابق، وعزز نقاط ضعفي، ثم انتهى بقوله من أكون.

- لقد خدعنا هذا الفتى. قال لي المهندس رئيس الجامعة في ساعة الصباح الأولى من هاتف إلى هاتف، من منزل إلى منزل، وفي أيدينا نحن الاثنان جريدة الصباح.

قدَّرتُ صيغة الجمع التي استعملها، لكنني أدركت أنه كان يقصد المفرد.

كان ذلك يوم الثلاثاء، ولمَّا تمر بعدُ سبعة أيام عن الهزة الأولى. لكن كل شيء حدث أربع مرات على الأقل. خمس مرات تجادلت مع رئيس الجامعة ذلك اليوم. قال لي خمس مرات بأننا هُزمنا، وأنني أنا الذي عليَّ أن أستقيل. فهمت من نبرة صوته المتصاعدة أنه لم يعد عبدًا لي، وأن مصداقيتي قد سقطت أرضًا. لم أستطع جره بعيدًا ولا ابتزازه باستقالتي.

جاء ليزورني في منزلي ليلًا. قال:

- هذا ينبغي أن ينتهي.

تفاقمت الأمطار الغزيرة التي كانت تتساقط عليّ خلال

المساء في نشرات الأخبار في الراديو. لقد انتصر فولتير على طول الخط. عند مفترق طرق، عرفني أحدهم وهو في سيارته وقال وهو يكاد يموت من الضحك: "وداعًا يا فولكنر".

في صباح اليوم الموالي، قال أعضاء لجنة التحكيم الذين اختاروني للفوز بجائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب، إنهم يسحبون تصويتهم لصالحي.

تناولت الإفطار يوم الأربعاء ذاك مع صديقي رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. أشار عليَّ بمخرج فظيع: أستقيل من الجامعة، لكن الجامعة ستعتني بي، بمعنى أنهم سيصرفون لي راتب مستشار دون أن أقوم بأي شيء، وسيحتفظون بالذين عينتهم في مناصبهم، بما فيهم زوجتي التي ستحصل على زيادة في راتبها. سيدفعون لي أيضًا، بسخاء، مقابلًا عن استقالتي، كما لو كنت قد طُردت، مما يعني مبلغًا من المال سيزيد من مدخراتي لبعض الوقت، وهذا كله، في هذه المرحلة، ليس -لا يبدو- عقوبة فحسب، بل إن له صبغة جائزة، مثل دلو من ماء نظيف تمرَّغ في الرمل حال خروجه إلى الشاطئ.

ما أريد قوله هو أن صديقي المهندس ورئيس الجامعة -لم يعُد الآن صديقي- قد قرأ جيِّدًا الحصص النقدية الخاصة باستقالتي ومقدار ما كلَّفته للخروج من أعماقي، كما خرجتُ مساء ذلك اليوم بالذات، عندما قدمت عن رغبة، وبكثير من الأناقة، تنازلي المزدوج: عن إمبراطوريتي الصغيرة في الجامعة وعن جائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب.

ذهبت لرؤية مارثيلينا لكي أطلعها، قبل أيّ شخص آخر، عن تنازلي المزدوج.

قالت لي:

- لقد سحقوك يا حبيبي. لقد ألقوا بك إلى حَجَر الذبيحة. وأنت تركتهم يفعلون. أريدك أن تتذكر ما سأقوله لك. لم أنس قط اللحظة التي كنت فيها بداخلي لأول مرة. أنا حطام، ولا أريدك أن تتذكرني كما تراني لأنك ستتذكر حطامًا. أريدك أن تتذكر نفسك كما أتذكرك أنا. لأن ذكرايَ منك لا تُقهر. لن يغلبك أحد في ذكراي. ولا حتى في الذكرى التي ستكون لديك عن ذكراي عنك. سوف تظل لا تقهر في مرآة ذكرياتنا. أنا الآن عجوز ومتحذلقة. لستُ سوى ما أتذكره، أي أنني في تناقص متزايد، كل يوم لا شيء، باستثناء الذكرى التي أحتفظ بها عنك.

كانت عجوزًا، صارت حطامًا، لكنني الآن أتذكر ما قالته لي وكأنها قالته لتوّها، كما هو في ذاكرتي: تعويذة ضد الهزيمة، تميمة ضد السنين، أحفوريُّ شبابٍ عنبريٌّ.

٧

زوجتي، التي شغَّلتُها مذيعة بإذاعة الجامعة، لم تحضر إلى عملها تلك الليلة، حتى لا تضطر إلى قراءة خبر مغادرتي، بحسب قولها. لكنني علمت شيئًا آخر في نفس الليلة.

قدمتُ استقالتي ذات يوم أربعاء في الساعة الحادية عشرة صباحًا، بعد عشرة أيام من ظهور أول خبر صحافي ضدي. فعلت ذلك وفق الشروط المضبوطة التي طلبها مني صديقي المهندس ورئيس الجامعة -لم يعد الآن صديقي- بدون تفسيرات ولا لف ودوران.

طلبتْ زوجتي، في إطار ولاءٍ لم تعد تكنُّه لي، الإذن بعدم تقديم نشرة الأخبار تلك الليلة، هذه النشرة التي جعلتُها أنا تقدمها. قالت إنها لم ترد أن تحس بحزن وهي تقدم نشرة أخبار ستُعلَن فيها استقالتي. سوف لن تستطيع الاستمرار في التقديم بعد إعلان الخبر، ستنفجر بالبكاء.

كانت زوجتي تسمي عملية قراءة الأخبار التي كتبها آخرون على شاشة القراءة تقديم نشرة الأخبار. كانت وظيفتها، كما تقول، أن تجعل ما يضعه الآخرون أمامها لتقوله يبدو طبيعيا. هؤلاء الآخرون يتلقون يوميًا في مكتبي الموافقة على الأخبار التي يجب أن تُذاع، وتلك التي لا يجب، وذلك من أجل خدمةٍ أفضلَ لاستقلالية الجامعة والتزاماتها. ينبغي الاعتراف بأن زوجتي كانت تقدم الأخبار بكل فخامة وبدون تكلف، إذ لم يكن لها أيّ رأي أو اقتناع أو معرفة بالأشياء التي تقولها.

لقد كتبتُ هذه الفقرة الأخيرة من زاوية ازدراء ما بعد الوفاة، لا من زاوية الحب السابق الذي كنت أحسه آنذاك تجاه زوجتي. وليحكم كل واحد كما يشاء. أنا أقول فقط الماقبلُ والآنذاكَ والمابعدُ، حقائق مختلفة جدًّا من الحكاية.

قدَّرتُ التفاتتها التضامنية ببقائها معي لمشاهدة النشرة التي تذيع إقالتي بشكل شنيع. أردت أن أعتبر ذلك علامة على ما تبقّى من حب في قلبي تجاهها وجلست بجانبها لأشاركها بؤسي. لكن، في تلك الدقائق القليلة من تلك الليلة نفسها، بينما كنا -الاثنين- نشاهد معًا، متضامنَيْن، النشرة التي تغيَّبَتْ عنها من أجلي، فجأة انقلب شيءٌ في معدتي مثل سمك حوت، وأصبحت في بخار تلك الحركة مثل دُبٍّ معه آلة دفّ، أي صورة فلامنكو رومبا الغريب الذي كانوا يجبرونني على الرقص على نغماته أمام الناس. أدركت الشيء الفظيع الآتي: أن زوجتي كانت جالسة بالفعل بجواري، متضامنة مع ما تبقى

لها من حبي، لكن هذا الحب الذي تبقى لها كان بحجم ثقب في قاع بئر مقارنة بحجم القبة السماوية التي يشكلها حبها الجديد لفولتير، الحب الذي حرَقتْ على مذبحه أسراري واحتفلت بخرابي.

ثم صرخ موبي ديك بداخلي قائلا: آه أيتها المنافقة. آه يا ابنة العاهرة... آه أيتها الخائنة!

قد يكون من الغباء القول بأن أعلى شكل من أشكال الحب الذي أحسست به تجاه زوجتي، ولم أشعر به تجاه غيرها نشأ، في الواقع، من ذلك الغضب: أكثر أشكال الحب شدة وألمًا حب الغيرة المستعر. حتى ذلك الحين كنت أحبها مثل انبثاق أفلاطوني، كانت منيعة أمام وضوح ظلّها في الكهف. منذ تلك اللحظة، كانت كلها مجرد ظلّ شِرِّير.

بينما كنا نشاهد نشرة الأخبار، اتضح بداخلي، كما في صدمة ابتنائية تؤججنا وتشوهنا، عدم حبّي لها. ونُقش إلى الأبد داخل مشاعري بأني رجل تخونني زوجتي، بسبب المشهد الذي -حتى ذلك الحين- حدث مرة واحدة فقط وسيحدث داخلي منذ الآن بشكل متكرّر، بتكرار لا نهاية له. أقصد ذلك الصباح الذي كنت أقرأ فيه عاريًا وفي العتمة قبل الفجر لائحة التسعة والسبعين وأنا أعُدُّ مظالمهم، وفي نفس الوقت تنزل زوجتي الدرج، نحيفة بفخذيها الثابتين، والقوسين العاليين لقدميها، وأصابعها الطويلة وكأنها لوحة رسمها مايكل أنجلو، وكعبيها، وكأن كعبيها كعبا طفلة صغيرة، وركبتيها، ركبتا فتاة يافعة بالكاد

تكشفهما تنورتها، وسمعت نغمة صوتها الجميلة، وهي تردد أغنية امرأة مسرورة، ساهية وفي قمة نشاطها. عندما اكتشفَتْ أنني كنت عاريًا، أقرأ الصحف على ضوء مصباح أعمى، قفزتْ مرعوبة مثل جندب، وسألت من أكون. أجبتها أنني أنا، لكنها قالت إن ذلك لست أنا، لأنها لم تعرفني، لأن على وجهي علامات من يعاني من مرض احتشاء المساريق.

كانت كلمة المساريق مثل جرس صيني دق في رأسي، كما سيتذكر أولئك الذين قرؤوا هذا حتى الآن. مساريق؟ قلت في نفسي. في اللحظة التي حضرتني فيها إضاءة فريدة ومميزة بأن شخصًا ما استولى على روحها ولسانها وقلبها، أحدٌ ما امتلك عواطفها وهي الآن تسرق كلماته. لتُعبّر عن مشاعرها، كانت بحاجة إلى سرقة تعبير شخص ما. وهذا الشخص، كنت أعلم ذلك حينها، وأعلمُه الآن، لا يمكن أن يكون سوى فولتير.

عند الانعطاف الثالث لموبي ديك في معدتي تمردتُ تلك الليلة، وأدرت رأسي كما فعل الحوت في بطني، صارخًا بداخلي: "مرضى باحتشاء المساريق، تبًّا لكم! تبًّا لكم! تبًّا لكم!".

كنت لا أزال بجوار زوجتي، صامتًا. كنا نشاهد معًا نبأ استقالتي، وأفخاذنا ملتصق بعضها بعضًا على الأريكة، بينما الصفراء تدور مثل حوت بداخلي. طبعًا، لم أكن أصرخ شتمًا لنفسي، بل لفولتير. لأن فولتير هو الذي وضعني تحت رحمته وكأنه يمسك بخصيتيَّ وبمبيض زوجتي، ويمسك بنا نحن

الاثنين من الجانبين. كيف وصلنا إلى هناك؟ كيف حوصِرْتُ في مبيض زوجتي، وهي في خصيتي فولتير الذي تخطى مجال حكم خصيتيّ؟

آه أيتها المنافقة العاهرة. آه أيتها الخائنة.

كانت زوجتي قذرة وأنا كنت قذارتها.

عند نهاية نشرة الأخبار مسحت بيدها على خدي ثم فوق جبهتي. نمت على الأريكة. في الصباح الباكر من اليوم الموالي خرجت لأمارس رياضة الجري. مكثت طوال الصباح أتجول في الحديقة.

استمر الجرس يدق في رأسي بنبرته القوية في الذاكرة:

احتشاء مساريقي، مرة واحدة.

احتشاء مساريقي، مرتين.

احتشاء مساريقي، ألف مرة.

احتشاء مساريقي، حياتي كلها.

مرة أخرى: كيف وصلنا إلى هناك؟

أعتقد أنه قد صار واضحًا مما قيل حتى الآن أن إحدى جوائز أو امتيازات السلطة الثقافية تكمن في الوصول إلى النساء اللائي يَحُمن حول هذا العالم بحثًا عن ضوئهن، ومساحتهن الخاصة. وفي العادة لا يظفرن إلا بعشيق يكبرهن سنًا وبخيبة أمل. تلك

هي، عادةً، الخطوة الأولى من مسارهن في هذا العالم. كنت متخصصًا في أن أكون الخطوة الأولى للعديد من المبتدئات اللواتي مررن أمامي، وهو جانب آخر من ولعي بالتجميع.

أصرح مسبقًا بأنني كنت أجمع تلك الدرجات الأولى دون إساءة استخدام موقعي في أعلى السلم. أملك ما يكفي من الغرور، وكذلك الخبرة، لأفكر في أنه دون أن أكون في أعلى السلم، كنت سآخذُ الغالبية العظمى من أولئك اللواتي جئن من خلاله إلى حيث كنت أريد، نظرا لموهبتي الكبيرة كزير نساء. كان السلم يجعل عملية التخزين سهلة، وبدونها كان ينبغي البحث في مجال مفتوح. لكن لا السلم وحده كان فعالًا، ولا المجال المفتوح كان خصمًا. على الأقل بالنسبة لي.

لم أجبر أيّ واحدة، ولم أجر أيّ واحدة بحبل من أعلى السلم. هذه حقيقة. لكنني سأكون غبيًا إذا قلت إن الوجود على قمة السلم لم يكن سببًا قويًا يجعل المبتدئات يسمحن لأنفسهن بالانجذاب نحوي، سواء كنّ ساذجات أو طموحات أو فقط معجبات بأنفسهم.

داليا، زوجتي، المرأة التي سأسميها هنا داليا حتى لا أضطر إلى نطق اسمها، وصلت إليّ عبر السلم الذي أنا بصدد وصفه. وهي تلمع بطريقتها الفريدة. أعلم جيدًا أن هذا كلّه مجرد هراء يقوله رجل ذكوري كاره للنساء، أعرف ذلك جيدًا، لكن هذه هي حقيقة الهراء الذي بواسطته تَشَرَّبتُ بداليا. ما أريد أن

أقوله هو أنه لا يستطيع أحد أن يقول عنها ما يمكنني قوله، وما سأقوله عنها، لأنه لم ينظر إليها أحد بنفس التشرب مثلي، وبنفس الاهتمام مثلي، وبنفس الحب والإعجاب مثلي.

أستطيع أن أقول هذا لأنني رأيتها قبل أيام قليلة، بعد أن دُمِّرت دائرة السحر التي جمعتني بها، ولم أر سوى امرأة فاتنة، امرأة تستهوي بمواصلة النظر إليها، ولكن لم أر المرأة التي أتحدث عنها، المرأة التي استطاعت أن تستقر في دواخلي، ملفوفة في الهالة التي لا تملكها أو لا يمكن أن تملكها سوى النساء المحبوبات، النساء اللائي يرتدين نظرة الحب، نظرة الكمال الأفلاطوني، التي تجعلنا ننسى ظلالهن ونستسلم لجمالهن الجوهري الذي لا يراه إلا العشاق.

كانت داليا تقريبًا، منذ اللحظة الأولى وأمام عيني، جزءًا من جسدها، جزء بجزء، الكمال الأفلاطوني الذي لم يكن يتمتع به سوى نصف أجزائها. أشكال قدميها، على أقل تقدير، التي لا يحتمل أن تظهر فيها بثور أو أورام. وقعت في حبها بهذا الشكل، لا أقول منذ أن رأيتها، أو بعد فترة وجيزة، ولكن منذ اليوم العادي والمستنير الذي كانت تأكل فيه سندويشات "التاكوس" وتلعق أصابعها، وخلف تلك الأصابع الطويلة والصمغية، لم أر فجأة أظافر مشذبة، ومفاصيل دقيقة، وغضاريف ناعمة، بل أناقة سابقة للحركات نفسها، وسيادة روح نُقلت إلى دقة تلك الحركات. ما رأيته هو الجمال الجوهري لأصابعها، ويديها، ورخامة حركاتها البطيئة والهادئة والاقتصادية والأساسية.

لم أكن مهيَّئًا بما يكفي لتلك الاكتشافات، لسبب يسير هو أنني لم أر قط أحدًا مثلها، ولم يكن ذلك محتملًا حتى. كنت سعيدًا بلقاءاتي مع النساء وإعادة الخطيئة معهن، كنت قد أحسست بحنين مسائي أو صباحي إلى بعضهن، بل إلى الكثيرات في الواقع، وإذا أجبرتموني، إلى كل واحدة: وهذا جانب آخر من شخصية المولع بالتجميع والتملك. لكن لم يكن ذلك الحنين قط مثل الذي أحسست به نحو داليا.

فهمت لاحقًا أنه قبل رؤيتها تأكل سندويشات "التاكوس"، كنت بالفعل مجنونًا بها. لقد انبجست أمامي، هاربة من الكهف، في صفة مساعدة تطفو على كعبيها العاليين، أطول من الأخريات، في رقة عضلات ساقيها وفي التوازن السيادي الذي تنشره وهي تمشي على كعبيها الطويلين المربوطين إلى كاحليها بأشرطة ربط طروادية. نظرتْ إلي كما تنظر النساء عندما يردن النظر إلى الواحد منّا وأنا استجبت لنظرتها بمجرد انتهاء الندوة ودعوتها لتناول العشاء.

ثم بدأت أتعمق فيها وتتعمق هي فيّ شيئا فشيئا، إلى أن أحسسنا معًا بأننا نعيش في فقاعة انسجام الحب وكماله التي طالما سعى إليه النصفان الأفلاطونيان، وهو تجميع لم أؤمن به قط، لأن غريزتي كانت دائمًا، ولا تزال، باستثناء هذا الاستثناء الوحيد الذي ما زلنا نتحدث عنه، غريزة المفترس، لا غريزة الزوج المخلص أو غريزة حامي رعيّته.

يجب أن أقول إن داليا تسلقت في بضعة أشهر ما لم تتسلقه أخريات قط. فبعد أن كانت لفترةٍ قصيرة منسقةَ جدول أعمالي، والتي بدأتها بفتح مساحات زمنية لنا نحن الاثنين داخله، كانت منظمة دقيقة جدًّا لغداءات رئيسي وصديقي، المهندس ورئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي.

ذات يوم، أمام غياب مؤقت لإحدى المذيعات، قال رئيسي:

- جرّب داليا يا صديقي. فليضعوا أمامها شاشة القراءة وتقم بتجربة. ستكون أفضل من أحد آخر.

انتابتني موجة غيرة عنيفة، شغف لم أكن أعرفه فيّ، لكنه بدأ يهاجمني حتى مع رئيسي وصديقي، الذي لم يعد الآن صديقي. انتصر الانتهازي فيَّ على الغيور، فنفذت الأمر فورًا. مساء ذلك اليوم نفسه، كانت داليا تجري تجربتها. أتذكر أنه بعد ساعة من الشروحات والتصحيحات في طريقة التعامل مع شاشة القراءة، جعلوها تقرأ، كما لو كان ذلك على المباشر، نصّ نشرة الأخبار المسائية لليوم السابق. في اليوم الموالي، شاهدت التسجيل مع صديقي المهندس الشبق ورئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. شاهدنا الاختبار وحدنا على شاشة مكتبه. بعد ثلاث دقائق من بدايتها، جاءته مكالمة. بعد أربع دقائق، مكالمة أخرى. وأخرى في الدقيقة الخامسة. فأمر:

- لا تمرروا لي أيّ مكالمة.

لم ينبس ببنت شفة خلال الدقائق الخمسة والعشرين الموالية، حتى انتهت النشرة. في الأخير التفت إلي، وقد تأثر بشكل واضح بإلهام داليا الذي غزاني أنا، وقال وقد أحس أنه حقق صفقة مادية رابحة:

- ولدت لنا نجمة.

ما رأيناه في تلك الدقائق كان حقًّا مفاجئًا: مُقدمة تحسن حضورها أمام الكاميرات، تتصرف أمامها وكأنها غير موجودة، تقرأ بإيقاع طبيعي، وتعطي الانطباع بأنها لا تقرأ، وتنظر إلى الكاميرا بابتسامة دائمة وصوت ناعم وقوي يخرج من فمها دون عناء يجعله مسموعًا. وهناك شيء أكثر ندرة وفرادة هو: لم تكن بحاجة إلى فهم ما كانت تقرؤه لتقرأه وكأنها تشرحه.

ظلت داليا مقدمة للنشرة المسائية في الجامعة لمدة ثلاث سنوات، السنوات الثلاث التي كانت فيها أيضًا مالكة هذياني، هذيان حالة الوقوع في حب إنسانة، حتى ذلك الحين لم أكن أعرفها.

شكلت الأسابيع الأخيرة من تلك الفترة الثلاثية ذروة مستقبل مفتوح. فقد وقعَتْ في أيام قليلة الأحداث التالية:

أعاد مجلس إدارة الجامعة انتخاب صديقي رئيس الجامعة المهندس -لم يعُد الآن صديقي- وهو تمديد السلطة الوحيد الذي يسمح باستمرار مؤسستنا النبيلة والمناهضة لإعادة الانتخابات.

قمنا بافتتاح متحف للفن الحديث بدون منافس في المدينة.

فازت داليا بالجائزة الوطنية للصحافة عن نشرة أخبار الجامعة.

وفزت أنا بجائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب.

في يوم الثلاثاء من الأسبوع الموالي، نشر فولتير في الإمبارثيال دليلًا على سرقاتي الصحفية، التي أهملتُها أثناء غرامياتي مع سوسانا رانكابينو.

كما اتهمني يوم الخميس بسرقة موضوع روايتي الفائزة أيضًا.

في يوم الاثنين الموالي، وقع تسعة وسبعون كاتبًا على رسالة يطالبون فيها بإعادة الجائزة والاستقالة من منصبي في الجامعة.

الذين قرؤوا حتى هذا الحد يعرفون ما تلا ذلك:

يوم الأربعاء تنازلتُ عن الجائزة والمنصب.

ليلة الأربعاء، شاهدنا معًا أنا وداليا نشرة أخبار الجامعة التي أعلنوا فيها تنازلي المزدوج: عن إمبراطوريتي وعن الجائزة.

ونفخ حوتُ الغيرة المظلمُ المجهول نفَّاثاته العالية بداخلي.

يا للغيرة!

٨

يوم الاثنين من الأسبوع الموالي، فاجأتُ زوجتي وهي تجري مكالمة مع فولتير. كنتُ كلفتُ من يتجسس عليها، مما نتجت عنه عواقب وخيمة.

في موضوع الغيرة، يمكنني أن أنتحل باروخ سبينوزا نفسه دون أن أترك أيّ أثر، لكنني أقتبس منه كما هو، حتى لا يؤذيني أحد.

الأخلاق، الاقتراح الخامس والثلاثون: إذا تخيل أحدٌ أن الشيء المحبوب يرتبط مع آخر بنفس رابطة الصداقة، أو بعلاقة أقرب من تلك التي يمتلكه بها هو، فسوف يتأثر بالكراهية تجاه الشيء المحبوب، وسوف يحسد ذلك الآخر.

وأضاف:

من يتخيل أن المرأة التي يحبها تمنح نفسها لآخر، فإنه لن يحزن فقط لأن شهيّته ستصبح مكبوتة، بل إنه أيضًا سيكرهها لأنه سيجد نفسه مجبرًا على جمع صورة الشيء المحبوب بعورة الآخر وإفرازاته...

كنت سبينوزيًّا إلى درجة الخزي في غيرتي على داليا. وذهبت أبحث عن التفاصيل التناسلية لخيانتها.

سأقول دون أيّ تنطع، بل بكثير من الرعب، إنني ألفيت نفسي خلال كل هذه الفترة أسيرًا لمسألة كلاسيكية هي: الجذب المزدوج للغيرة. تلك المعضلة الجهنمية المتمثلة في الرغبة في عدم معرفة أيّ شيء، وفي الوقت نفسه الرغبة في معرفة كل شيء: الرغبة في المعرفة والرغبة في عدم المعرفة، في الوقت نفسه، إلى آخر التفاصيل.

لم أسرق شيئًا من موضوع حزن سيد سوان (Swan) الشديد على تلك المرأة أوديت دي كريسي ذات الجاذبية الزائفة والتي، في نهاية المطاف، لم تكن من مستواه. ما أقوله هنا أستمده من تجربتي الخاصة مع داليا، دالياي، وفولتير، فولتيرنا، مع دالياي التي كانت لفولتير، على الطريق الذي جعلني أسير نحو الهاوية. من خطواتي في تلك الهاوية، التي سأعود إليها لاحقًا، أستعيد اليوم شعورًا بالسخرية أكثر من جرح معاناة. بصيغة أفضل: بصمة السخرية هذه هي التي ترمز في ذاكرتي إلى ذلك الهذيان المؤلم.

فقدت المنصب في الجامعة، لكني لم أفقد السلطة. كنت احتفظ بمنطقة السلطة تلك التي تكون فوق المناصب، سلطة الولاءات والمصالح الشخصية التي يمنحها الناس للآخرين ويمكنهم المطالبة بها لاحقًا، في شكل تواطؤ أو خدمة، متى

لم تكن صداقة، ولو بشكل ظاهري على الأقل. حافظت بعناية على علاقتي بشبكة الجواسيس بالجامعة، المكلفين بشبكة المعلومات السرية المحفوظة الخاصة برئاسة الجامعة وكبار مسؤوليها. كانت علاقتي مع هؤلاء الجواسيس وطيدة وطبيعية: كنا أنا وهم نعلم أشياء لا يعلمها أحد غيرنا. على وجه الخصوص، كنا نعلم أشياء مشتركة عن صديقي المهندس ورئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. الحاصل أنني طلبت من أصدقائي الجواسيس الشيء الوحيد الذي لم أطلبه منهم قط، وهو: التنصت على زوجتي.

خطأ قاتل!

قبل التنصت الهاتفي، كنت أعلم بشكل عام كل ما فعلته زوجتي وما كانت تفعله. لكنني في الوقت نفسه كنت في غفلة عن معرفتي الدقيقة بها، إذ كان يسامرني تحفظ لطيف بأنني ربما كنت مخطئًا طوال هذا الوقت تجاهها، وحول تصرفها كغبية، أو متواطئة، أو خائنة، أو الأشياء الثلاثة معًا، من أجل تدمير حياتي.

كنت أعلم أن فولتير قد استولى على رأس زوجتي، وأنها أخبرته بسر مهنتي. لكنني لم أكن أعرف إلى أيّ مدى ولج فيها فولتير. أقول ولج فيها بالمعنى الدقيق للكلمة، وهو المعنى السبينوزي للأعضاء التناسلية. لم أعرف حقيقةً حجم ذلك الولوج، الذي ينتهي بالتصاق الروح، حتى بدأ مالاكياس،

شريكي في التجسس الجامعي، يرسل لي تسجيلات ونصوص الهاتف المحمول لداليا، خائنتي، زوجتي.

آه يا ماكرة. آه يا ابنة الباغية.

النساء آلات محكمة الدقة. لا أحد يستطيع أن يعزف عليها بالكامل حتى آخر نوتة، لكن يمكن لأي كان أن يحصل منهن على نغمات لا تُنسى. لم أدرس علم التعرف على أي امرأة. وفي هذه الحالة، على أيّ رجل. أعني، على أيّ أحد. استطعت إغراء الرجال والنساء والتلاعب بهم للحصول على ما أريد. بدءًا من مارثيلينا، طبعًا، أكثر من باقي النساء. لكنني لم أتمكن قط من معرفة من يكون كل واحد بالضبط. ومع ذلك، أعتقد أنني كنت محرِّكًا جيدًا للآخرين، وهذا يعني أنني أعرف غرس رغباتي في رغبات الآخرين. بعد قول هذا، والإقرار بكل ما سبق، أصرح بأنني لم أكن أعمى وتائهًا أمام أيّ أحد مثلما كنت أمام المرأة التي أحببتها أكثر، وبكل صراحة ووضوح، المرأة التي أمسكت بزمام مشاعر حياتي، التي عرفتها أقلّ من أيّ امرأة، وخدعتني أكثر من أيّ امرأة. أقصد المرأة التي أسميها في هذا النص داليا لأنني لا أريد أن أنطق اسمها الحقيقي.

سمعتُ زوجتي، في تسجيلات مالاكياس، تقول لفولتير أشياء كانت تقولها لي. سمعتها تضحك بحماسة على نكاته التافهة، سمعتها تهمهم له أن نعم، وتهمهم له أن لا، وأنها تغار من الكتب التي يقرؤها، وأنها تجنَّبت النظر إليه حين التقيا في

أحد ممرّات الجامعة، وأنها عجوز مقارنة معه (كانا في نفس العمر، أقل مني بعشرين عامًا)، وأنها تتذكر جيدًا تلك المناسبة، ذلك المكان، تلك المحادثة، كيف نظر إليها مرة واحدة ولم يُعد النظر إليها مرّة أخرى، وأنَّ عليه أن يحمي نفسه من نزلات البرد التي بدأ يعاني منها، وأن يحدثها عن الكِتاب الذي هو بصدد كتابته، وإذا كان يتذكرها وكم مرة وكيف، وبأي جزء من جسدها، ونتيجة لذلك قبِلت، عبر الهاتف، لعبة لمس أعضائها التناسلية مع فولتير، جنبًا إلى جنب على الخط، وقد سمعتُهما يتأوهان معًا على الخط.

آه، الأعضاء التناسلية.

لقد تحدثت مع مالاكياس وتجاوزت كل الحدود. قلت له:

- عليك تصويرها بالفيديو في منزل عشيقها.

- ليست فكرة جيدة. أجاب مالاكياس الضليع.

- أريد كل شيء مصورًا أيها الوغد. كل شيء!

- يصور ما يمكن تصويره. حذَّر مالاكياس.

- حسنًا، ولكن كل شيء.

لم يستطع مالاكياس الدخول قط إلى شقة فولتير، وإن كان ذلك تخصصه، لأن فولتير جهزها بنظام إنذار لا يمكن اختراقه. هذا ما قاله لي مالاكياس. وأيضًا لأن فولتير كان يقضي يومه كلَّه تقريبًا في المنزل، محبوسًا، يقرأ ويكتب مثل

مجنون؛ بل من الأفضل أن نقول: مثل ملاك مسالم. استطاع مالاكياس تصويره ذات مرة، من شرفة سطح مجاور، من خلال مشربية موازية لإحدى نوافذ بيته. فأتاني بشيء غامض مصوّر تصويرًا سيِّئًا، ضبابيًّا، لكنه كافٍ لأرى ما كان يحدث بين فولتير وداليايَ، وبينهما وبيني. أنا الذي لم أكن موجودًا هناك أثناء تصوير مالاكياس، لكنني كنت أكثرهم حضورًا في ذلك المشهد عندما رأيته، أكثرهم حضورًا بقية أيامي.

سأحاول أن أكون دقيقًا في وصف هذا التكهن لزوجتي وهي تضاجع فولتير مثل معتوهة، من خلال المشربية الضبابية.

المشهد كالآتي:

بينما كان فولتير يقرأ على أريكة طويلة في صالة بيته، تحت ضوء مصباح واحد، رن الجرس. نهض واتجه إلى الباب منزعجًا انزعاج قارئ تمت مقاطعة مطالعته. فتحَ الباب، وعبرهُ دخلت امرأة مثل عاصفة وألقت بنفسها بين ذراعيه، وأسندته إلى الحائط وقبلته، واستمرت في تقبيله بينما كان هو يحاول إغلاق الباب ويقاوم الهجوم بمزيج من الفكاهة وقلّة الرغبة.

فكاهة وقلّة رغبة.

وبدون قناعة داعب رأس زوجتي وقبَّل رقبتها كي يفصلها عن فمه، وليتمكن من اصطحابها إلى الأريكة الطويلة الأصليّة في هذه الفقرة. (الكتاب من طينة فولتير لا يملكون أرائك عادية بل أرائك طويلة). وفي طريقها إلى الأريكة الطويلة،

بدأت تخلع سترتها من نوع أرماني (Armani) وألقت بحذائها ذي الكعب الطويل إلى السقف، حتى تكون حافية القدمين، وبدأت تفك أزرار قميصها لتترك ثدييها، اللذين لا يحتاجان إلى حمالة صدر، مكشوفين في الهواء مصوَّبين نحو الفم الذي يبحثان عنه، فم فولتير في هذه الحالة، الذي تضع يديها تحت حزامه لينتصب عضوه، ثم تفك أزرار سرواله، بلا رحمة، بينما تبحث عن فمه من جديد، بينما هو (على ما أظن أنني أرى، من خلال المشربية) يبتسم ويموج تحت داليا، آخذًا -بغرور ولكن بدون إثارة- عاصفة الحب التي تلقى عليه، عاصفة زوجتي. شبه عارية الآن ومستعجلة عجلة لا يُبادلها إياها فولتير، مبتلة من عجلتها، على ما أعتقد (آه من ابتلال زوجتي)، لدرجة أنها في حركة واحدة خلعت تنورتها، وفي تقدم شامل واحد ألقت بفولتير على الأريكة الطويلة وهي عارية فوقه، باستثناء ما يخفيه الثونغ الذي ترتديه ذي الدانتيل الأرجواني، وهو مستلقٍ على الأريكة الطويلة لم يخلع حتى حذاءه أو قميصه أو سرواله، فقط كانت أزرار سرواله مفتوحة، وفوقه ذلك الجمال الأبيض، أي زوجتي.

كنت أرى كلَّ هذا بضبابية، من خلال ستائر فيديو مالاكياس، لكن في هذه اللقطة بدا لي وكأني أراها من خلال عدسة مكبرة. كنت أرى بكل يُسر ما لم أتمكن من رؤيته في نسخة مالاكياس، مثلًا، أن زوجتي تقبل فولتير بشفاه مبللة ممتلئة باللعاب، وأن في لحية فولتير، رغم شبابه، شيء من الشيب.

ورأيت أيضًا ما كان من المستحيل رؤيته في فيديو مالاكياس، أي: الأعضاء التناسلية لداليا، التي تمزج شعرها الفاتح مع الشعر الأسود لعانة فولتير، وهي تصعد وتنزل بفرح عبر قضيب فولتير غير ذي الأبهة لكنه شديد التشحيم.

آه قضيب فولتير. آه زوجتي تنزل وتصعد عبره.

حتى تلك اللحظة كان يغمرني وهمٌ محبّ، طفوليٌّ تمامًا، بأن الأعضاء التناسلية لزوجتي كانت ولا يمكن أن تكون إلا لي أنا. وكأن أعضائي أنا أيضًا لم تكونا إلا لها ولصالحها. لدي اليقين الآن أنّها قدمتها لآخرين. قدمتها على الأقل، وبشكل آسر، لكسل فولتير. عرفت الآن، من فيديو مالاكياس، كيف كانت زوجتي مع فولتير، ومن ثم، ربما أيضًا مع آخرين. كلُّ الأشياء المجنونة التي كانت تسمح لنفسها بممارستها معي، فعلتْها مع آخرين والآن، وبشكل واضح، مع فولتير. كانت لها علاقات حميمة مع آخرين قبل أن تكون زوجتي! استمتع بها آخرون واستمتعَتْ بهم قبل أن تصبح زوجتي! لا شك في ذلك، لكن لحظة استسلامها لفولتير -في فيديو مالاكياس الضبابي، المغرض بعض الشيء- يبدو الأمر وكأن داليا تُسلِّم نفسها لأول مرة لآخر، في نسخة مزيفة وغير مقبولة من المرّة الأولى التي كنّا فيها معًا على سرير، كما لو كانت طفلة بكرًا، وهي لم تكن كذلك، وأنا أول مستفيد من آهاتها الأنثوية، لم يكن الأمر كذلك أيضًا.

آه أيها الغبي؛ آه يا ابن الباغية.

لو كان بإمكان الرجل الغيور أن يطلب ما يريد معرفته، لطلبت معرفة ما طلبتُه: كيف نمارس الجنس مع من يُريد، وكيف هي تفاصيل الأعضاء التناسلية للخيانة. إنه البؤس المعرفي للغيور.

لكن المعرفة هي المعرفة، وهذا ما أعطانيه مالاكياس في ذلك الفيديو المغرض، المضبب بالمشربية، والذي سمَّمَته مخيلتي: الطريقة التي ألقت بها زوجتي بنفسها على فولتير، وتقبُّل فولتير هجومها الغاضب بلا مبالاة.

آه يا داليا: يا غبية، يا مجنونة، يا زهرة أيامي، يا منتهى أشواقي. كيف استطعت أن تحبي شخصًا آخر بهذا القدر وأنت تحبينني كلَّ ذلك الحب؟ كيف استطعت أن تنقسمي في ذلك النفاق الذي كان يمكن أن يجرحني أكثر والذي دمّر حياتي؟ لا يهم الآن إن كنتِ على قيد الحياة، أو إن كنت قد أعدت تشكيل حياتك. المهم، وأنا أكتب، أنك دمّرت الخيال الممكن لحياتَينا. آه أيتها التافهة؛ آه أيتها المغرمة بي، وبكل الآخرين الذين عبروا حياتك. آه يا جرّة الحب المضيافة: كيف تركت فولتير يدخل داخلك وأطلعته على كل أسرارنا، داخل لهيب حبِّك له غير المفهوم، وهو الذي كان يخدعك أكثر من أيّ شخص آخر، وبالطبع أكثر مني، لأنه كان يحب نفسه أكثر مني. انظري من يقول لك ذلك، وهو الذي كان يحبك أقلَّ مني

وأقلَّ مما يمكن أن يكون عليه حبُّ أيّ شخص آخر لك. لأن لا أحد كان قادرًا على أن يحب أقلَّ مني، باستثناء فولتير. آه يا حبيبتي الخرقاء، يا خامدة الهمة، يا خائنتي، يا غادرة بي، يا دالياي الضائعة، كيف دمّرت ما كان لنا؟ كيف ذهبت لتهبي نفسك لمن يمكن أن يؤذيني كثيرًا مجرّدُ إعجابك به ولو كان قليلًا، وإعجابه بك أنتِ ولو بشكل أقل أو حتى منعدمٍ.

أعتذر عن هذا الفوحان الغنائي الذي لم أحاول سرقته من أحد، أي أنني لم أعجب بأحد، ومع ذلك، ينبغي أن أعترف بأنه متأصل في حقيقة الغيرة في الحياة وفي الأدب.

الحقيقة الموثّقة هي أن فولتير ضاجعها. من الأفضل القول: هي ضاجعت فولتير. هذا ما قاله لي فيديو مالاكياس الضبابي.

لماذا سمعتَ كلامي يا مالاكياس؟ لماذا لم تخبرني بما كنت تعرفه جيدًا وهو أنه، في هذه الحالة، تكون معرفة التفاصيل الكثيرة سببًا في التقليل من العلاج، واستمرار المرض، وعدم النسيان؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

٩

لم يسعني سوى التجسس عليها طيلة الأيام الموالية، الثلاثاء والأربعاء، مما نتجت عنه أيضًا عواقب وخيمة.

ذهبت لزيارة مارثيلينا في بيتها الهادئ حيث تقضي بقية عمرها. حكيت لها ما اكتشفته عن فولتير، وعن عبقريته التي وضعها في خدمة تدميري، وزوجتي في خدمة أريكته الطويلة.

لم أقل شيئًا عن غيرتي، لكنها قرأتها دون تخدير.

- عليك بقتله -قالت لي بتلك النظرة الثابتة التي لا بد أن يكون موسى نظر بها عندما كُلِّم على الجبل عن ألواح الشريعة- إن موهبته لا تقهر. عليك بقتله.

هنا انتابتها نوبة مرض ألزهايمر. ثم أضافت بعد أن مرّت النوبة:

- طعنا بخنجر.

هذه الكلمات الأخيرة، التي قالتها عرضًا مسنّة أعادها شعورها بالكره إلى شبابها، كانت لها عواقبها. سنراها لاحقًا.

أجبتها:

- طعنات الخنجر لن تشفي الغليل.

ذهبت مارثيلينا إلى المطبخ بخطواتٍ عسكريةٍ، متمايلةٍ لكنها حازمةٌ، وأحضرت زجاجة ويسكي ومعها كأس.

- اشرب وتكلم -قالت- ثم تذكر. ثمةَ عاقِب.

شربتُ وتكلمتُ حتى وقت متأخر جدًّا، حتى نامت مارثيلينا نفسها. عدت إلى المدينة ثملًا، أقود سيارة استقرت بها عجلاتها وحدها على بعد مربعين سكنيَّين جميلين من الشارع الذي توجد به العمارة التي يقطن بها فولتير. كانت الأضواء في شقته مطفأة. أوقفتُ السيارة، أسكتُّ المحرك واستعددت لرؤية ما يجري هناك حتى غفوتُ.

أيقظتني إحدى حركات رأسي في وقت ما. الأضواء في شقة فولتير ما زالت مطفأة. قدت سيارتي إلى منزلي، لكنني لم أركنها في مكانها في المرآب، تركتها متوقفة بالخارج وطفقت أتجول في الشوارع، مسترجعًا عادة شبابية طالما أطلقَتْ العنان لرأسي نحو عوالم أخرى. مشيت حتى الفجر، ثم عدت إلى منزلي ساعة الإفطار.

وجدت داليا جالسة في المطبخ تشرب شايًا بالقرفة. كانت

عيناها حمراوين وتحتهما أكياس جميلة كأنها طنجرة ضغط فرنسية. أخبرتني أنها كانت قلقة بشأن غيابي. سألتني أين كنت.

- لا أعتقد أنك تريدين معرفة ذلك. أجبتها، وكأنني أُلمِّح إلى أني كنت مع أخرى، أو أنني ذهبت إلى العاهرات، أو أن ألم الفقد قد كسر رأسي وبي قائمة جديدة من الجنون والهراء، والغضب والحزن (بيثينتي ويدوبرو؟ بابلو نيرودا؟): هذيان الحياة الجريحة.

- سيموت أحد هنا -قلت لها- لأن كل هذا خسارة كبيرة، وألم شديد.

جاءت تواسيني بشكل طبيعي، كمن يواسي طفلًا صغيرًا، ورأيتها تبكي، نصف بكائها علي والنصف الآخر عليها.

عندما استيقظتُ، كان تقرير آخر من مالاكياس ينتظرني، هذه المرة عن تحقيقاته حول فترة علاقة زوجتي بفولتير. لديه تفاصيل حول مقابلتهما الأولى، ووجبة غدائهما الأولى، وذهابهما معًا إلى فندق لأول مرة، ولقائهما الأول في شقة فولتير. حدث كل ذلك خلال الأسبوعين المجنونين اللذين استغرقتهما إعادة انتخاب صديقي المهندس ورئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي. تلك الحملة استنزفت وقتي وعقلي في تلك الأيام، لدرجة إهمالي لكل أموري وعدم مغادرة مكتبي. كنت أبقى للنوم في غرفة صغيرة مخصصة لهذا

الغرض في المكتب المجاور لمدير الجامعة، حيث كان ينام هو أيضًا غارقًا في إفرازاته الأدرينالينية.

لم يكن لي بيت في تلك الأيام، ولا زوجة، وكأنني وكيل متجول. لذلك لم يفاجئني شيء مما جاء في تقرير مالاكياس. في هذا المستوى من معرفتي، كان كل شيء بمثابة عملية جمع يسيرة. أكثر من ذلك: قائمة وقائع مالاكياس تجعل زوجتي بريئة بطريقة ما. الحقيقة أنني تركت لها المجال مفتوحًا فوقعَتْ فريسة لمن يملك أعظم موهبة في جيلها، أعني فولتير، فهو كاتبٌ فريد، بليغ كتابةً وكلامًا، له سعة اطلاع ثقافية مبكّرة وطبيعيّة في نفس الوقت، وأيضًا هو رجل شاب ذو بشرة بنية وعينين صفراوين، وقامة طويلة وكتفين جيدين وساقي لاعب كرة قدم، مثلما كان ويستن هيو أودن (Auden) يود أن تكون سيقان الشعراء. خاصة سيقان الشعراء الذين كان يحبهم.

لم يكن فولتير مفترسًا جنسيًّا مثلما ينبغي أن يكون، بل نرجسًا بريًّا فاتنًا. لم يكن أحد يدرك أفضل مني، إشعاعه اللا إرادي على أحلام ورغبات الآخرين. كان إشعاعًا كونيا: أنثويًّا وذكوريًّا وخنثويًّا. كان يركز نظراته وابتساماته المثيرة على الرجال والنساء، العاديين والمثليين والمتحولين جنسيًا والبالغين والمراهقات، دون أن يشعل فيه ذلك الجو الشهواني، الذي يثيره مع مروره، أيّ شرارة مماثلة. كان يثير تمسّكًا حالمًا أو شبقًا، لكن عمق كيانه يخفي زاهدًا، إله حب غريب، منعزلًا بشكل متناقض عن العالم، متفرغًا للكتابة والقراءة والاستماع

إلى الأغاني العاطفية المشهورة، التي تولد من عمق روحه المحايدة وغير المتأثرة بالعاطفة.

اكتشفت وأنا أكتب هذا أنني كنت مفتونًا به.

ثم أخبرت مالاكياس أنني لا أريد المزيد من التقارير، فقط المعلومة المحددة عندما تتوفر لديه، عن الزيارة المقبلة لداليا لشقة فولتير.

- ليست فكرة جيدة. قال الضليع مالاكياس.

شتمته على جوابه وكأنه مرؤوسي. لم يكن كذلك، لكنه تجاهل سوء معاملتي بشكل حِبّي. قَبِلَ التكلف بالمهمة.

كل هذا حدث صباح الثلاثاء.

بعد ظهر الأربعاء، اتصل بي مالاكياس. قال لي:

- اتفقا على أن يلتقيا اليوم على الساعة الثامنة في شقة فولتير.

بمكر جدير بشخصية أياغو الشكسبيرية، سألت زوجتي عما كانت تنوي فعله تلك الليلة. وببرودة جديرة بأياغو، أخبرتني بأنها مدعوّة لتناول عشاء مع صديقات من جيلها، وأنها ستتناول بعض الشمبانيا، ولا ينبغي أن أظلَّ مستيقظًا في انتظارها.

في السابعة، أخبرتها، بشرٍّ جدير بأياغو، أنني سأذهب إلى مطعم بالحي الراقي بالمدينة للعشاء وتناول بعض المشروبات، لأنني لم أذق الطعام منذ الليلة السابقة.

بدا لها الأمر طبيعيًّا، مثلما تبدو للعشاق المستعجلين للذهاب إلى مواعيدهم السرية طبيعية الأشياءُ الغبيةُ التي قد يفعلها أزواجهم في تلك اللحظات.

هكذا أخفينا ما كان يحدث بالفعل. في الحقيقة، أخفته هي وحدها، لأن ما فعلته أنا هو أنني توجهت مباشرة نحو هزيمتي، ووضعتها على وجهي.

أعني أنني لم أذهب إلى مطعم بالحي الراقي، بالطبع ، بل استأجرت سيارة أجرة بالساعة وذهبت فيها للوقوف عند زاوية عمارة فولتير، على مسافة غير بعيدة، لرؤيتها عندما تصل. وصلت دقائق قبل ساعة الموعد، ملفوفة في ملابس رائعة، تمشي على حذاء جلدي، تشقّ طريقها مثل عارضة أزياء على منصة، وشعرها يرقص فوق كتفيها وهي تمشي، مظهرة فرحًا لا شك فيه.

آه يا جميلة؛ آه يا سعيدة.

استعددت للانتظار داخل سيارة الأجرة حتى تخرج. ما حدث داخل سيارة الأجرة، منذ الدقيقة الأولى، هو أن مقطع فيديو مالاكياس الناقص، الذي عاث نقصانًا، مر في رأسي عدة مرات.

عندما بدأت شكاواي وأنيني تفزع السائق، صرفت سيارة الأجرة وجلست على الرصيف أمام عمارة فولتير، بجوار شجرة رماد ضخمة.

كان فولتير يقطن في الطابق الثالث من العمارة. نوافذه تطل على الشارع، لذلك كنت أراها من الرصيف، مضاءة كما هي، تتلألأ على إيقاع غيرتي.

بإمكاني تخيل زوجتي عارية بين ذراعي فولتير، لأنني كنت أتذكر فيديو مالاكياس، وأعرف جسدها. لكنني لم أستطع تخيلها تلك الليلة كما أتذكرها، ولا كما شاهدتها مضببة في فيديو مالاكياس. كنت أتذكرها بشكل أسوأ، في انبطاح غاضب ووقاحة أجهلها، لكنها حاضرة بقوة في مخيلتي. أقصد الطريقة التي يمكن أن تكون بها خائنة لي في رأسي في أحضان فولتير، بشغف لم أستفد منه قط، وصاحبه الوحيد المتجاوز لكل الحدود هو فولتير.

آه، كيف ضاجعت زوجتي فولتير في رأسي، وكيف تتشابك معه بساقيها المفتوحتين مثل راقصة باليه، وشعرها الأمازوني الجميل وهو يدور بعنف على رأسها مثل طاحونة هواء.

يمكنني قول ما يلي دون أن أخل بالحقيقة ولو للحظة: لم يضاجع فولتير زوجتي كثيرًا مثلما ضاجعها تلك الليلة، تحت شجرة الرماد الرائعة تلك، في رأسي.

آه يا ابنة العاهرة؛ آه يا عمياء؛ آه أيتها العاشقة الخائنة.

هكذا كنت في تلك الساعات جالسًا، من الساعة ٨:١٣ إلى ١٢:٤٧ ليلًا، عندما رأيت سيارة أجرة تصل إلى باب عمارة

فولتير. بعد ذلك بقليل، خرجت داليا من باب العمارة رفقة فولتير الذي نزل لتوديعها.

رأيت داليا تقبل فولتير بشغف النساء اللواتي يعتقدن أنهن قد وجدن حب حياتهن، حفلة عاطفة لأزواج مبتدئين. ورأيت فولتير يتلقى قبلة داليا ويودعها بشكل طبيعي مثلما يفعل أيّ رجل ضاجع أحدًا للتو.

عندما غادرتْ داليا وأغلق فولتير باب العمارة، انتابتني رغبة في طرق الباب لإرجاعه وإخباره بما أعرفه. وصلت إلى الباب فعلًا، وكدت أقرع الجرس، عندما انطفأ الضوء. أعلم أن أمر انقطاع التيار الكهربائي فجأة غير مفهوم في العديد من البلدان، لكنه شائع في بلدنا، لدرجة أنه لوصف هذه المسألة هنا لدينا عبارة واحدة: انقطاع التيار الكهربائي.

حصل انقطاع التيار الكهربائي في العمارة وفي مجموع العمارات وفي حي فولتير، بالتحديد في اللحظة التي كنت فيها على وشك أن أقرع جرسه وأصعد الدرج وأراه وجهًا لوجه وأتحداه وربما أقتله. لست أدري كيف كنت سأقتله، لكني فكرت في أن أخلع حزامي ذي الإبزيم الكبير، وأشده جيّدًا بيدي اليمنى ثم أقفز عليه وألطمه به بمجرد فتحه الباب على وجهه الذي لست أدري ماذا يشبه.

لكن الأضواء انطفأت في تلك اللحظة، كما قلت، فيما تسميه اللغة الإسبانية "في لمح البصر". انطفأت أضواء العمارة

التي أنا عند بابها، وأضواء الشارع الذي قضيت فيه تلك الساعات وأضواء الحي بأكمله، الذي لا يضيئه سوى وهج المدينة البعيد وقوس صغير من الضوء متبقٍّ من القمر.

عددْتُ ذلك فأل سوء وغادرت. مشيت ثلاثة أو أربعة شوارع في الظلام حتى حدود الحي المجاور الذي كان مضاءً، وبعد ذلك لا أعرف من أين مررت نحو منزلنا، لست أدري لماذا أقول منزلنا، لكنني أحومُ متقلبَ الأطوار حول كل شيء، إلا حول اجترار غضبي. وصلت إلى منزلنا عند الفجر، وقد أنهكتني خطواتي وغيرتي التي تنخر أحشائي.

نظرت إلى نفسي في مرآة مدخل البيت. رأيت وجهًا يهذي. أعني: وجهًا أصفر، يكسوه شعر أشعث، على جبهته تجاعيد، الخدّان متدلّيان، والهالات تحت العينين، والحدقتان كأنهما لمصاصي دماء.

كانت داليا تنتظر في المطبخ متظاهرة بأنها تنتظرني أنا. قلت لها قبل أن تفتح فمها:

- شارع غوبيرنادور غارثيا كوندي، رقم ١، الطابق الثالث.

كان ذلك عنوان فولتير.

قفز فنجان الشاي الذي كانت تشربه داليا قفزة باركنسونية بين يديها، وسقط على الأرض.

تابعت:

- لقد رأيتك حين وصلت ورأيتك حين غادرت. أتمنى أن يقتلكما أحد وأنتما تمارسان الجنس. وأن يُطعن هذا اللعين حتى الموت.

اكتشفت وأنا أقول ذلك أنني كنت أنتحل مارثيلينا. قالت لي داليا:

- عن ماذا تتحدث؟ أنا لا أعرفك.

قلت دون أن أخالف الحقيقة قيد أنملة:

- عزائي الوحيد الممكن في هذه اللحظة هو أن يُطعن هذا اللعين حتى الموت.

كانت ليلة الأربعاء.

١٠

يوم الخميس، أصبح فولتير ميتًا في شقته، مطعونا بخنجر. انتشر الخبر بسرعة على إذاعة الجامعة. ذلك اليوم، كنا، أنا وزوجتي، نتناول وجبة الإفطار معًا، كالعادة. عندما سمعَت الخبر، نظرَت إلي فَزِعة وكأنني أنا القاتل. في ذلك الصباح غادرَت البيت وبلَّغت عني.

استيقظنا يوم الخميس في غرفتين منفصلتين، مثل جاسوسين اكتُشف أمرهما، ونحن كذلك بالفعل، دون أن يكون لدينا شيء نقوله لبعضنا يمكن أن يغلق الصدع المُكتشَف، أو يضع حدًا لانفتاحه.

التقينا في ساعة الإفطار في المطبخ، مطبخ جيد جدًّا، عليَّ أن أقول ذلك، مصمم من أجل التعايش وغياب الخدمة المنزلية، مهيأ فقط من أجل ساكنيْ المنزل الحميمَيْن، الزوجين العصريين اللذين كنّاهما أنا وداليا، الزوجين اللذين تخلينا عن أن نكونهما، أو اللذين نجسدهما أكثر من أيّ وقت مضى، إذا أدخلنا فولتير في المعادلة.

إنني أهذي، لكنني لا أكذب.

نزلنا بعد أن نمنا نوما سيّئًا وشَعْرُ كل واحد منا أشعث، صباح ذلك الخميس، إلى مطبخنا المشترك، ومزاجي فاسد أكثر بكثير من مزاج داليا التي من ميزاتها نفح العطر، وحضَّرنا القهوة التي لا تشربها، والماء من أجل مشروب القرفة الساخن، الذي كانت تفضله، وحضرتُ أنا عصير برتقال، من الذي لا تشرب منه داليا سوى رشفة واحدة، وطبق البابايا الذي تتناول منه أكثر بقليل ما لم يلتصق به جزء من القشرة، وهو شيء لم أكن أحرص عليه قط، وكلما كانت تفوح من البابايا تلك الرائحة المنعشة والمحايدة حين يكون كثير العصارة، لا رائحته المنحرفة حين يكون في غير موسمه، الرائحة المنحرفة للأعضاء التناسلية- فكرتُ ذلك الصباح- الرائحة والقشور التي أعطتها داليا لفولتير في الليلة السابقة، في خضم تلك الاستدارات العشقية التي لم تعطيها لي.

اللعنة على الغيرة.

داليا، داليا، داليا، لماذا تضاجعينه هو؟ بالضبط هو؟

ولماذا استطعت أن أتخيل موته، وأتمنى موته، وأتمنى له الموت بينما أنت تضاجعينه، وأن يطعن حتى الموت؟

- عزائي الوحيد هو أن يموت هذا اللعين -قلت لها- وطعنًا.

فكرة الطعن أخذتها من مارثيلينا، لكني لم أخبر داليا بذلك.

سرقت من مارثيلينا، دون أن أترك أيّ أثر، لأوضح لداليا كل ما كانت تحمله داخلها الجملة الآتية: كلانا يعرف ما كنا نتحدث عنه، وأنني اكتشفت حتى آخر تفاصيل خيانتها لي، وأن غيرتي كانت بحجم ما يدفعني إلى القتل.

بما أنه لم يكن لدينا شيء نتحدث عنه دون أن يؤدي إلى الطريق المسدود الذي في الفقرة السابقة، فقد أشعلت داليا الراديو على الموجة التي كانت تُبث فيها إذاعتنا دائمًا، على نشرة أخبار الجامعة، والتي كانت لها ثلاث نشرات: الصباحية والمسائية والليلية.

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا وقد مضى وقت نشرة الأخبار الصباحية، منذ حوالي ساعتين، لكن المحطة تعيد مرات ومرات الخبر الذي أحزن / أرعب/ صدم الوسط الجامعي / الفكري/ الفني في البلد.

وهو: أن الكاتب الشاب والرائع الذي نسميه هنا فولتير قد وجد ميتًا في شقته هذا الصباح، بعدة طعنات.

ضمت النشرة عدة فراغات في محاولة لعدم الخوض في التفاصيل الدموية للحدث، لكن محطّات أقلّ جامعية كانت تقدم، شيئًا فشيئًا، ثم كثيرًا فكثيرًا، تفاصيل المذبحة، وهي: أن الكاتب الكبير الذي حصل على جائزة على كتابه الشعري الأول، على كتابه الفكري الأول، المحتفى به نظرًا لتحليله النيِّر لأزمة بلاده داخل رحم العالم المتغير، قد طعن طعنات قاتلة

عند باب مدخل شقته ثم، على ما يبدو، حُمل وهو مصاب بجروح مميتة، أو لعله كان ميتًا، إلى شقته ليتم طعنه أكثر وتشويه جثته هناك.

البلد مليء بجرائم القتل مع التشويه والتعذيب، لكن في أوساط الحياة الأدبيّة والثقافة، في فضاء الجامعة، لم يحدث شيء مماثل قط مع مبدع شاب يعد، بلا شك، موهبة ذهبية واعدة في جيله أبانت عن ذاتها في كثير من المجالات. الكلاسيكي المعاصر والناضج المبكر الذي أسميه فولتير.

رفعت زوجتي عينيها عن البابايا التي قطعتُها لها ونظرت إلي مفزوعة. لم تقم بالشيء الطبيعي الذي كان عليها أن تفعله، أي الصراخ والبكاء مثل مجنونة، والعويل والتركل على حبّها الضائع، الذي لا تزال تحمل إفرازاته في جسدها. لا. ما فعلته هو أنها وضعت وجهها في طبق البابايا، في صمت شاحب، وأتمت أكلها بشراهة.

ثم قالت:

- أنا ذاهبة إلى الحمام.

بينما كانت نشرة الأخبار تضيف تفاصيل مروعة عن موت فولتير، ذهبت داليا بالفعل إلى حمام الضيوف، الذي كان عند مدخل المنزل، لكنها بدل أن تدخل الحمام تابعت السير إلى الأمام. فتحت الباب وخرجت جريًا من منزلنا وكأنها تركض لتنجو بحياتها، وهي ربما تتذكر كلماتي التي قلتها الليلة

السابقة. وهي: أتمنى أن يقتلوكما معًا وأنتما تمارسان الجنس، على أن يقتل فولتير طعنًا.

حسنًا، لعلها تعتقد أنني انتهيت من فولتير، وليس أمامي إلا التفرغ لها.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحًا، وبالكاد غفوتُ. استمتعت عندما علمت أنني قادر على أن أغرس فيها الخوف من قاتل متسلسل. نمت على أريكة الصالون. استيقظت بعد الثانية بعد الظهر وقلبي متيقظ، يتوهج من نوبة تبصر. فهمت فهمًا صارمًا أنني -من وجهة أيّ نظرة خارجية، خاصة نظرة زوجتي- أنا المُنبِّئ بالجريمة التي حدثت، ومن ثم، مرتكبُها المحتمل. فقد كنت في مكان الجريمة، وكان لدي دافع، ولم يكن لدي عذر، وقد تحدثت عن طعن فولتير. عادت، في هذا السياق، الطعنات التي رغبت فيها مارثيلينا، لا تعبيرًا عن رغبة، بل اعترافًا بقصد القتل. قصد تم تحقيقه. لقد حولت الحقيقة التي لا مفر منها سرقتي لمقولة مارثيلينا إلى نوع من الاعتراف في المحكمة.

رأيت عاصفة تسونامي تقترب لتحل فوقي.

اتصلت بمالاكياس، لكنه لم يرد على مكالمتي. بعد هنيهة تلقيت على هاتفي الجوال رقمًا يمكنني أن أكلمه فيه. أخبرني مالاكياس عبر ذلك الرقم أن الجامعة في حالة صدمة، وأن الصحافة تعاملت مع الأمر وكأن حادث اغتيال تروتسكي قد

تكرر، وأن هناك تفاصيل أخرى لا يستطيع إخباري بها عبر الهاتف بل حضوريًّا، وأنه سيبحث عني لاحقًا لهذا الغرض.

- في انتظار ذلك حاول أن تجد محاميا- اقترح علي الضليع مالاكياس.

بعد بضع دقائق من أحلام يقظة كلها هذيان، شعرت خلالها أنني "اللحية الزرقاء"، عادت إلى رأسي حقيقة من أكون، وهي الغزو النشيط للواقع بدل المعاناة منه بسلبية.

أعني أن هاتفَ المنزل البارد رنَّ، وأنه كان يرنُّ مثل الأجراس التي تعلن أدوار أفواج العمال في المصانع القديمة.

كان المهاتفُ صديقي المهندس ورئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي:

- ما هذا الذي فعلته أيها الوغد؟ ما هذه المصيبة التي فعلتها؟

- لم أفعل شيئًا.

- لم تفعل شيئًا؟ حسنًا، سيكون عليك أن تبرهن على ذلك. لقد صوروك بالكاميرات الثابتة الخارجيّة عند منزل القتيل، جالسًا تحت شجرة، تذهب وتجيء مثل مجنون، قبل وقت الجريمة. هل كنت هناك أم لم تكن هناك؟

- كنت هناك.

- وماذا فعلت أيها الوغد؟

- لم أفعل شيئًا. عدت إلى منزلي.

- أنت لم تفعل ذلك أيها الوغد. وصلت إلى منزلك عند الفجر.

- كنت أتجول في المدينة.

- تتجول في المدينة؟ أيّ صنف من الحجج هذا أيها الوغد؟ ألم تكن مع صديقة؟ ألم تكن في ملهى؟ انظر، اسمعني جيدًا، أنا أتحدث إليك كصديق. لقد أرسل لي الوزير للتو التقرير الأولي عن التحقيق.

الوزير، كما قلت، كان بالنسبة له دائمًا هو وزير الداخلية، ومرشحه لرئاسة الحزب الحاكم.

- أرسله إليَّ حتى أتمكن من اتخاذ الإجراء اللازم، لأن هذا سيكلف الجامعة الكثير أيها الوغد.

- سيكلف الكثير؟ - سألته.

- القضيّة هي أن مسؤولًا جامعيا سابقًا رفيع المستوى قتل أكبر موهبة واعدة في الجامعة.

- أنا لم أقتله.

- لا يهمني إن كنت قتلته أم لا -قال صديقي في إحدى تلك النوبات اللا أخلاقية التي قرّبت بعضنا من بعض مرات عديدة

في حياتنا- ما يهم هو أن تستطيع إثبات ذلك. وسيكون ذلك صعبًا، لأن شهادة زوجتِك هي أيضًا ضدّك.

- زوجتي؟

- زوجتك أيها الوغد. جاءت لتشهد بأنك طعنت القتيل.

- طعنته؟

- هل قلت لزوجتك، أيها الوغد، أن القتيل ينبغي أن يموت طعنًا؟

- نعم قلت لها ذلك. لكنني لم أطعنه.

- إذن، قل لها ذلك.

- لداليا؟

- لداليا أيها الوغد!

توقف لحظة ثم غيّر لهجته:

- أعلمُ أنك ستقابل صديقًا مشتركًا بعد لحظة -كان يقصد مالاكياس- سأرسل لك معه كل ما عندي. يهمني أن تدافع جيدًا عن نفسك، لكنني لا أستطيع تكليف مكتب محاماة الجامعة للدفاع عنك، أولا، لأنك لم تعد موظفًا في الجامعة. ثانيًا، لأنني أفصل الجامعة تمامًا عن هذا الأمر، وأفتحها أمام كل ما تريد الشرطة التحقيق فيه. أريدك فقط أن تخبرني، من صديق لصديق، بكل صراحة: هل قتلت هذا الغبي أيها الوغد؟

آنذاك حصل لديّ الشك الوحيد في حياتي بشأن سلامة عقلي. فكرت بصدق خلال تلك الثواني في ما إذا لم أكن دخلت عمارة فولتير وطعنته حتى الموت. وما إذا كنت قد محوت كل ذلك من ذاكرتي، وحولته إلى نسخة غبية من تأمل خلال تجوالي في الشوارع بعد انقطاع التيار الكهربائي الليلة الماضية. يعني ذلك أنني كنت أشك في أنني ربما تملّكني جنون أكثر من الجنون الذي كنت عليه، أي أنني صرت مجنونًا يطعن، قاتلًا يستطيع أن يقتل دون أن يتذكر جرائمه. تأخرت هاتين الثانيتين في الرد ثم أجبته:

- لا.

أفترض أن صديقي المهندس ورئيس الجامعة، عدوّي في تلك اللحظة، سمع صمتي أكثر مما سمع جوابي بالنفي، لأنه قال بلسان حال من يستسلم:

- بارك الله فيك.

سمعت أنا: "إلى الجحيم".

تواعدت مع مالاكياس في مطعم في حي بولانكو يسمى لابوتيليا. عندما دخلت المطعم، طلب مني رئيس النوادل، الذي كنت أعرفه لأننا أنا وداليا كنا نتردد على ذلك المطعم مرة كل أسبوعين، أن أدخل إلى بهو بجوار فندق بولانكو. من بهو الفندق، أخذني أحد من العمال وكان حذقًا إلى الغرفة التي استأجرها مالاكياس عشيّة ذلك اليوم. لم أذكر اسم مالاكياس

ولن أصف أساريره الحقيقية، تكريمًا لحذره واحترافيته العالية. بل عليَّ أن أمدحه لأنه كان يعطي الانطباع اليقيني بأنه لم يكن يكذب، وأنه لم يكن يختلق أيّ شيء، وأنه لا يخون قط أسرار مهنته. وأمام أسئلة محددة، كان دائمًا مستعدًا لقول ما يعتقده مرة واحدة. لا أكثر.

وضع في يدي ملفًّا به ثلاث صور مستنسخة، إحداها لجثة فولتير العارية الملطخة بالدماء. يظهر فيها متكئًا في زاوية من الغرفة، وعلى وجهه جُرْحان وكوكبة من طعنات سكين على صدره وجانبيه وبطنه.

- اللعنة! قلت له.

- أجل. قال مالاكياس.

الصورتان الأخريان تخبران بما لخّصه لي صديقي المهندس رئيس الجامعة، الذي لم يعد الآن صديقي:

كانت كاميرات مراقبة الشارع قد سجلت وجودي في شارع فولتير، كما سجلت دخول داليا وخروجها. وسجلت فولتير وهو يودعها. وقد أكدت داليا بالفعل هذه الحقائق. فعلت ذلك أولًا مع محامي الجامعة، ونصحها هذا الأخير، بأمر من صديقي رئيس الجامعة، بأن تصرح بإفاداتها على الفور أمام مكتب المدعي العام، وهو ما كانت تقدمه في هذه اللحظات، حسب مالاكياس. بينما نحن نتحدث.

- أسوأ ما في هذا الجزء أن داليا تتهمك -أوضح مالاكياس- لقد أخبرت محامي الجامعة، وسيُخبر النيابة العامة أنك لم تكن في منزلك ساعة الجريمة. أنك عدت بعد عدة ساعات، عند الفجر. وأنك في اليوم السابق أخبرتها أنك تريد فولتير ميتًا. وأنك تريده ميتًا طعنًا. أنصحك بالتركيز على أنه، في اللحظة التي أعربْتَ فيها عن هذه الأمنية الأخيرة، كانت هذه الأمنية قد تحققت وأن المتوفى قد طُعن. أنصحك، للمرة الثانية، بتوكيل محامٍ. لن يمكن للجامعة أن تقدم هذه الخدمة.

- أعرف ذلك.

- يجب أن أسأل عن هذا. تابع مالاكياس. رفع صورة فولتير المطعون ثم سألني: هل لك أية علاقة بهذا؟

- لا

- لا مباشرة ولا غير مباشرة؟

- لا من قريب ولا من بعيد.

- لم تفعل هذا ولم تأمر بفعله؟

أجبت هذه المرة دون أيّ تأخير:

- لا.

- إذن ستحتاج إلى محامٍ ومحقق. قال مالاكياس. بالنسبة للمحقق، هناك أحد معارفي بدأ يحقق في هذه القضية، كانت

من نصيبه، يسمى سالادريغاس. لا داعي لأن تبحث عنه، سيأتي إليك عشيّة اليوم. أو هذه الليلة أو صباح الغد؛ لأنك، يا صديقي، ستتلقى زيارة من الشرطة في موعد أقصاه صباح الغد. أتوسل إليك ألا تفعل، حتى ذلك الحين، أيّ شيء يوحي باليأس أو الخوف. سلّم نفسك للتحقيق كما أنت: بريء. ودعهم يجدون الجاني. سالادريغاس هو الذي سيضمن أن التحقيق سيذهب أبعد مما هو جليٌّ.

ثم سحب الصور من يدي:

- لا يمكنني أن أترك لك هذا. ولا يمكنني مساعدتك أكثر. ولكل غاية عمليّة، لم نلتقِ أنا وأنت. أتمنى لك حظًّا وافرًا.

مالاكياس صديق مخلص. الوحيد الذي تبقى لي من تلك اللحظات، وقد فقدته للتو.

١١

يوم الجمعة، زارتني الشرطة مبكّرا في شكل المخبر سالا دريغاس، الذي اكتشف كل شيء في النهاية. بل اكتشف أيضًا، بطريقته الخاصة، من كنتُ أنا.

عدت من فندق بولانكو إلى منزلي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر. اتصلت بمارثيلينا علّها توصيني بمحام. فقالت لي:

- لدي المدافع المناسب عن جريمتك العادلة.

- أنا لم أقتله يا مارثيلينا.

- أقول لك جريمتك العادلة -أصرّت مارثيلينا- وأنا أعي ما أقول.

لا أحد يعرفني أفضل من مارثيلينا. رفعت كلماتها في رأسي زوبعة من الذنوب. أعادتني إلى فرضية جنوني الشديد، فرضية قصة الرعب المحتملة في ذاكرتي. أعني أنني يمكن أن أكون قد طعنت فولتير، ونسيت الفعل في ليلة دائي السوداء نفسها (هذا السطر سرقة أدبية).

لست من المعتادين على الإكثار من تناول الكحول، لكنني في مناسبتين على الأقل عدت إلى نفسي بعد سكْرٍ دون أن أتذكر ما فعلته الليلة السابقة. في إحدى تلك المرتين استيقظت ووجدتني بجانب امرأة لم أكن أعرفها ولا أتذكرها. كانت حنونًا للغاية ومتدللة وهي تتذكر، حسب قولها، أنني في الليلة السابقة أشبعت أحدهم ضربًا بعد أن تعامل معها بقلة حياء. "لقد دافعت عني يا مَلِكي. لن أنسى ذلك أبدًا".

أتذكر أيضًا مشاجرة في طفولتي، وأنا في نهاية مرحلة الدراسة الابتدائية، حيث ألقيت بنفسي بشراسة على طفل تجاوز حدوده في استفزازي نهاية العام، وفي نهاية المشاجرة لم أتذكر أيّ شيء، ولا أتذكر الآن سوى أنني كنت في مكتب مدير المدرسة وقبضتا يديَّ مجروحتان من لكمِ مستفزي وذاكرتي فارغة تمامًا من الطريقة التي ضربته بها. تسببت تلك المشاجرة في دعوى قضائية رفعها والدا الطفل ضدي، لأنه بعد الضرب اضطر إلى المكوث في قسم الطوارئ الطبية أربعة أيام. استرجع وعيه بعد ذلك، لكنه فقد السيطرة مؤقتًا على ذراعه الأيمن؛ وبعد شهرين وأثناء مباراة في كرة السلة، اعترضني وسدّد لي ضربة جامحة بذراعه ذاك الذي يزعم أنه مريض ليبعدني عن سلة الهدف، فأسقطني على ظهري وتركني مستلقيًا فاقدَ الوعي لعدة ثوانٍ في فناء المدرسة الإسفلتي الذي كنا نلعب فيه أثناء الاستراحة. ظللت أخاف منه بقية أيامي، وهو مني. لم نتشاجر بعد ذلك.

فعلت ما قاله مالاكياس، عدت إلى المنزل وانتظرت زيارة رجال السلطة.

كان انتظارًا طويلًا، عادت خلاله فرضيّة إمكانية طعني لفولتير للاستيلاء، من جديد، على مخيلتي الفاسدة. حاولت التحدث إلى الطاعن المجهول الذي قد يكون بداخلي. لكن الطاعن المجهول كان يجهلني هو أيضًا، لم يشاركني أسراره، ولا أنا شاركته أسراري. قضيت ليلة محمومة أحدّث نفسي دون أن أجيبها، في الواقع كنت أحدّث الآخر المحتمل الذي لم يكن موجودًا، أو على الأقل لم يكن يرد علي في عمق ذاكرتي البعيد والمبهم وغير القابل للاختراق.

ذاكرتي؟ ذاكرته؟ ذاكرتنا؟

لقد كنت، لفترة طويلة، سارقًا لآداب الآخرين، لكنني لم أكن أستطع التحدث إلى المجرم الذي كان من الممكن أن يسرق حياتي في ليلة دائي السوداء تلك (هذا السطر سرقة أدبية مثل السابق).

كما قال مالاكياس، حضرت الشرطة صباح اليوم الموالي. وضعوا، منذ وقت مبكّر، دوريات أمام منزلي في انتظار الأمر بتوقيفي الذي تم طهيه في وسائل الإعلام الليلة السابقة، مع انتشارٍ واسعٍ لخبر جريمة القتل وطبيعتها العاطفية. كل القصاصات تأسّست على منطق كوني أستخدمُ السكين حين أغار. لا يمكن أن ينتهي شبقي العكسي إلا بطعن فولتير،

خاصة إذا كانت داليا، دالياي، وهي تبكي وتحاصرها سحابة من الصحفيين، قد أومأت برأسها مؤكّدة لتجيب عن سؤال حول ما إذا كانت قد سمعتني أتمنى طعن فولتير.

من أين استخرج الصحفيون أن داليا سمعتني أتمنى ذلك؟ من التصريح الذي أدلت به داليا نفسها، ذلك المساء، أمام النيابة العامة، والذي تسرب إلى الصحافة، بشكل غير قانوني، خدمة للحق في الحصول على المعلومة. أمور تتعلق بالعدالة المحلية.

كل شيء يقطر حقيقة في تلك القصاصات، بدءًا بحقيقة كوني تمنيت أن يُقتل فولتير طعنًا. لكن طعنه لم يكن في ذاكرتي، ولم يكن بداخلي، لم يكن بداخلي سوى ذلك الغيور الذي تمنّى له الطعن، لكنني لم أطعنه أو على الأقل لم يكن هناك في ذاكرتي أنني فعلت ذلك، فقط كان فيها الشك، وغير ذلك.

الشك في أن شيئًا ما بقي فيها!

إنني أهذي وأكرر نفسي، أعلم ذلك، لكن هكذا كنت أهذي وأكرر نفسي في تلك الساعات السوداء.

في الساعة الحادية عشرة صباحًا، جاء إلى منزلي اثنان من عناصر النيابة العامة، وامرأة ترتدي بنطلونًا رياضيًا ولها بطنٌ مزدوج. ومحامٍ ذي شارب أسود وحاجبين منعطفين. وفي كلا الاثنين شيء من النعاس والكآبة.

وخلفهما، دخل المنزلَ المحققُ الذي وقع عليه الدور للتحقيق في حالتي، ويدعى سالادريغاس، وهو يمعن النظر بمهل في كل ما يراه.

أخبرني سالادريغاس باسمه وأطلعني على المستند الذي كان معهما: يسمى بـ"أمر بالحضور"، ويعني بوضوح أن النيابة العامة تأمرني بالمثول لديها لسؤالي حول ما أعرفه، كشاهد محتمل في القضية.

كل ذلك نبهتني إليه المرأة صاحبة البنطلون الرياضي والبطن المزدوج، حيث قرأتْ بروتوكولًا روتينيًا، أمام عينَي رفيقها اليقظتين والناعستين في الوقت نفسه، لست أدري كيف أصفهما.

قال سالادريغاس حينها:

- إن تصريحاتك بوصفك شاهدًا في القضية يمكن أن تدوم بقية حياتك. أقترح عليك أن تحكي لي ما تعرفه عن هذه القضية دفعة واحدة. هنا بالذات، في منزلك. أنا، بدوري، لديّ بعض الأشياء أريد أن أخبرك بها ويمكنها إما أن تساعدك في الدفاع عن نفسك أو تزيد من إغراقك. الأمر متوقف على التأويل.

كما نلمس من كلماته الأولى، سالادريغاس محققٌ من أولئك اللذين لا وجود لهم في أيّ مكان سوى في الواقع وفي الروايات. أعني: بالضرورة في الروايات واستثناءً في الواقع.

قال سالادريغاس:

- أريد أن أطلب منك شيئًا يمكنك رفضه، لكنه سيضعنا معًا على الطريق الصحيح.

- ما هو؟

- هل يمكنك أن تخلع ملابسك وتتركني أراك؟

- ليس هناك شيء كثير يمكن رؤيته. أجبت.

- في غرفة نومك؟ أضاف سالادريغاس.

تذكرت أن مالاكياس كان قد ذكر اسمه بشكل إيجابي. لذلك قبلت طلبه الجنوني. وبشيء من الغضب.

ذهبنا إلى غرفة نومي. خلعت ملابسي وأنا أشعر بانزعاج شديد. خلعت السترة أولًا، ثم القميص ثانيًا، فالقميص الداخلي. كنت على وشك البدء في خلع سروالي عندما قال سالادريغاس:

- هذا يكفى. ما لم تكن لديك إصابة في الساقين.

ومثل أيّ إجابة، خلعت سروالي أيضًا. بقيت في السروال القصير والجوارب.

قال سالادريغاس:

- هذا يكفى. ما لم تكن لديك إصابة في ذلك الشيء الصغير.

ثم أنزلت سروالي الداخلي.

نظر إليَّ سالادريغاس من الأعلى إلى الأسفل، نظر إلى كل شيء بالحياد الوحشي لمرآة. ثم تقدم نحوي. قام بجولة بطيئة في جسدي العاري. عندما كان وراء ظهري، أحسست بأصابعه الخشنة على مؤخرة رقبتي وهي تزيح شعري للنظر إلى رقبتي، ونفس الأصابع الصنفرية على عظامي الجدارية، تقوم بنفس العملية، لينظر جيدا في أذنيَّ. ثم وقف من جديد أمامي.

- بالنسبة لي، لست أنت القاتل -قال لي- بل من الأفضل أن نقول: ليس هناك أثر بأنك أنت من فعلها. مشكلتي أنني لا أعرف من الفاعل. وطالما أني لا أعرف، فأنت تظل أفضل مشتبه به. هيئ لي فنجان قهوة.

- عارية أم بملابسها؟ سألته وأنا لا أزال منزعجًا.

- نكتة جميلة جدًّا -ضحك سالادريغاس- آسف على تعريتك. صدقني إنَّ ذلك في صالحك.

هيّأت قهوة من أجل سالادريغاس، والسيدة البدينة وذي الحاجب المنعطف، في آلة نيسبريسو (التسويق المدمج "product placement" يسمون هذا، في عالم الإشهار المتقدم).

هيّأتُ أيضًا فنجانًا من أجلي.

بدأنا نشرب قهوتنا على المائدة حيث كنا نتناول أنا وداليا وجبة الإفطار كل يوم، غالبًا بعد شبقياتنا الصباحية.

قال سالادريغاس:

- كنت أمس في منزل الكاتب الميت.

- فولتير. قلت.

- هذا ليس اسمه. قال.

- بالنسبة لي هو ذاك اسمه.

- هل تريد أن تعرف ماذا وجدت في منزله؟

أومأتُ.

- نحن أمام جريمة شخص مات في شقته بسبع عشرة طعنة. الفرق بين الطعنات مهمّ. بعضها سطحية والبعض الآخر مميتة. وكأن بعضها تلقاها صدفةً والأخرى بشغف.

- كم عدد هذه وعدد تلك؟ قلت وأنا أهذي.

- الخمسة الأولى صدفة -قال سالادريغاس بهدوء- بل من الأفضل القول أنه تلقّاها في سياق مشاجرة. هذا ما يفسّر كونها سطحية. هذا يعني أن المتوفّى كان في حالة دفاع عن نفسه. إن عدم وجود إصابات، ولا حتى خدوش، على جسدك يعني أنك لم تكن طرفًا في تلك المشاجرة. لا بد أن تكون على القاتل بعض الخدوش على الأقل من تلك المشاجرة. لأن الصراع استمرّ لعدة أمتار، من مدخل الشقة إلى ركن الغرفة. أما الطعنات التي تلقّاها بشغف فقد جاءت في وقت لاحق،

بعد انتهاء المشاجرة، بعد أن أصبح المهزوم أعزلَ.

أحببت مشهد المشاجرة الذي وصفه سالادريغاس: فولتير وهو يدافع عن نفسه من الطعنات التي كانت ستقتله.

- ليس عليك أي علامات تدل على أنك خضت مشاجرة. قال سالادريغاس.

- لقد قلت لي هذا.

- قلته لك. لكن، هل كنت في المشاجرة؟

- لا.

بعد ذلك أصبح سالادريغاس غامضًا وملتويًا:

- أعني هل كنت حاضرًا وشهدت تلك المشاجرة، بينما شخص آخر يقاتل من أجلك؟

- ضد فولتير؟

- لا يوجد مثل هذا الاسم في الملف.

- ضد الميت؟

عاد سالادريغاس إلى استنطاقه:

- أخبرني بما حدث في رأيك تلك الليلة. قل لي كل التفاصيل.

بدأت المرأة ذات البطن المزدوج تكتب على جهازها الإستينوغرافي، متقدمة عن بروتوكول تصريحاتي.

أشياء تخص العدالة المحلية.

أخبرت سالادريغاس بما كنت أتذكره. عندما بدأت أحكي، صعد هذياني إلى الجنة، مع وقاحة شهادتي، ومع الحقيقة، التي ضريبتها هي الوقاحة.

حكيت لسالادريغاس ما حدث. كنت قد أمضيت ليلة الأربعاء جالسًا على رصيف عند زاوية منزل فولتير، قبالة العمارة ذات الطوابق الثلاثة التي يقطن فيها فولتير، والتي تطلّ نوافذ طابقها الثالث على الشارع، بحيث تمكنت من رؤيتها مضاءة، تومض على إيقاع غيرتي.

قلت له إنني تخيلت زوجتي عارية في الطابق الثالث ذاك، المرأة التي أعرف جسدها عن ظهر قلب، تخوض صراع حبٍ مع فولتير، صراع هزات وعضّات أعرفها، لأنها هي التي كنت أتلقاها في ليالي حبِّنا وصباحاته.

أخبرته كيف بدا لي، في تلك الليلة، أنه من غير المحتمل الشكلُ الذي يمكن أن تكون به داليا غير وفيّة لي. ليس بطريقة مختلفة لحب مختلف، حب آخر، بل بتكرار اختصارات وتأخيرات حبّنا أنا وهي، اختصاراتٌ وتأخيراتٌ مضاعفةُ الخيانة لكونها تتحقق بشكل متماثل في أحضان فولتير، مع الصعلكة المفصلة والمتحمسة التي كنت أظن أنني مالكها

الوحيد، والآن أصبح فولتير مالكًا مشتركًا لها.

آه يا ابن الباغية! انفتحتُ لسالادريغاس. كيف ضاجعَتْ زوجتي فولتيرَ في رأسي، وكيف تشابكت معه، وساقاها مفتوحتان كمقص مثل ساقي راقصة باليه، كما تفعل معي، وشعرها المسرح -مثل شعري- يلوح خلفها، مثل طاحونة هوائية!

- هل أنت مثليٌّ جنسيًا؟ قال لي سالادريغاس.

- لا.

- خنثى؟

- ولا خنثى. لماذا تسالني عن ذلك؟ أليس من الواضح أنني أعاني من أجل امرأة؟

- حسنًا، انظر: فرضية كون هذه الجريمة عاطفيّة شيء جيِّد -قال- وأنت أفضل مرشّح عاطفي لدينا. بهذا المعنى، أنت متورط. لكن الطريقة التي أرى بها الأمر أنا هي أنني إذا طلبت منك أن تطعن وسادة، فإنك لن تصل حتى إلى أربع طعنات، وستشعر بالملل. زد على ذلك -كما قلت لك- أنه ليس عليك أيّ أثر للمشاجرة التي سبقت القتل. لذلك أظن أن هناك شيئًا آخر هنا. لكني لا أعرف ما هو. ما ذا كان رأيك في المتوفّى؟

- في فولتير؟

- لا يوجد أيّ فولتير في الملف.

- فولتير هو الذي كان منافسي.

- منافسك في الحب؟

- حتى تلك الليلة، لا.

- ماذا كان من قبل؟

- منافسي الأدبي.

- لم أفهم.

- منافسي الأدبي بعيد المنال.

- بمعنى؟

- كان يكتب بأسلوب لن أستطيع أبدًا الكتابة به. كنت أحسده على حاضره ومستقبله ككاتب.

- كنت تحسده على ذلك؟ حقًّا؟

- مثلما لا أحسد أحدًا.

- هل يمكن أن تقتله من أجل ذلك؟

- لا. يمكن أن أنتحله. وكان من الممكن أن أقتل نفسي عندما تتحقق شهرته الشعبية وتظهر عظمته أمام أعين العالم.

- لكنك لم تقتل نفسك. قتلته هو. وكنت طوال الليل تراقب منزله الذي قُتل فيه. والأسوأ من ذلك: في الساعات التي قُتل فيها.

- سبق أن تحدثنا عن ذلك أيها المحقق. لست أدري ما إذا كنت قد أخبرتك، لكني أخبرك الآن: عندما رأيت زوجتي تغادر منزل هذا الوقح، كانت أمنيتي في الواقع أن أقتلها هي.

- لكنك لم تقتلها، بل قتلته.

- لا يا سيدي. تبعتها في رأسي عبر طريق عودتها إلى منزلنا، راغبًا في قتلها. لقد قتلتها أربع أو خمس مرات في مخيلتي. كنت أفكر في ذلك فقط. في مشهد خنقها، مشهد ضربها حتى الموت، مشهد خنقها مرة أخرى، مشهد ضربها مرة أخرى حتى الموت. هناك كانت تنتهي تصوراتي عن كيفية قتلها، إما خنقها أو ضربها، هناك بدأت المشاهد تتكرر، أما في الواقع فلم أقتلها قط؛ لأنني في النهاية أريدها على قيد الحياة أيها المحقق. مقوَّمةً بالعقاب، لكن حيّة. كل تلك الضربات والخنقات كانت من أجل أن أضطرها -في النهاية- لطلب الاعتذار، ثم مضاجعتها انتقامًا من الطريقة التي ضاجعها بها فولتير للتو.

-أكرر لك أنه لا يوجد اسم فولتير في الملف -قالها سالادريغاس للمرة الألف- أنت تتحدث عن فولتير. في كل مرة تذكر فيها هذا الاسم، بدلًا من الاسم الحقيقي للمتوفّى، نعتقد جميعًا أنك معتوه، وأننا نتحدث إلى رجل مجنون.

- من الواضح أنكم تتحدثون مع رجل مجنون أيها المحقق. من تعتقدني أكون أو يمكن أن أكون، غير رجل مجنون بنى حياته في هذه السرّية من السرقة الأدبيّة والهوس بالجمع. هذا

واضح حتى بالنسبة لمحقق مكسيكي مثلك، لا تخدعني. ماذا قلت لي اسمك؟

- سالادريغاس.

- حسنًا، لا تخدعني يا سالادريغاس.

-لقد راجعت مسيرتك المهنية في الصحافة -قال سالادريغاس بعد أن ضحك في سرِّه- هل صحيح ما تقوله الصحافة؟ هل كنت تسرق الأشياء هكذا؟

- كل شيء موصوف بطريقة مبتذلة للغاية في الصحافة -قلت- لكن إذا قلناه بطريقة مهذبة ودقيقة فهو صحيحٌ أيضًا: كنت أنتحل كلّ شيء.

- كنت تكلف نفسك متاعب كثيرة في الانتحال يا صديقي. ألم يكن من الأسهل أن تكتب بنفسك أشياءك الخاصة؟

- أنت لا تفهم شيئًا من جنوني يا سالادريغاس. ولا أعتقد أنك ستفهمه. قبِل سالادريغاس الضربة، ورفع يده إلى جانبه، بابتسامة أخرى. تابعت كلامي... المسألة هي: إذا لم أقتل أحدًا في هذه اللحظة، ما أهمية هذا الجنون؟ جنوني ليس له عمق. إنه، في عمقه، ليس سوى مبالغة في الهواية. ربما يكون جنحة لا يعاقب عليها بالسجن: الانتحال، الجمع، سرقة من الآخرين سرًّا دون أن يفطنوا للأمر. إنه، في العمق، نوع من التكريم. إنه جنون عميق ولكنه تافه، وفي العمق لا يخدع أحدًا سوى

المخدوعين الذين يشترون كتبًا معتقدين أنها أصلية وجديدة، دون أيّ تكلفة أخرى منهم سوى الانخداع لأحد باع لهم، في النهاية، الوهم الأسمى للفن، وهم مؤلف جديد.

أحاط سالادريغاس استطرادي بوميض انزعاج متحفظ، ثم عاد إلى موضوعه. فهمت أنه كان يدور ويدور ليمسك بنفس الخيط.

- أعود إلى الأحداث -قال- تم تسجيلك بكاميرات الشارع، تذهب وتجيء. ثم تم تصويرك في باب العمارة، وكأنك تطرق أو تدخل. هناك ذهب ضوء الحي. هناك اختفت أيضًا مقاطع الفيديو من الكاميرات. عندما عاد الضوء وعادت الفيديوهات، لم يعد أحد في تلك الشوارع، ولا حتى أنت. الصدفة السيئة، بالنسبة لك، هي أن الشخص الذي تسميه فولتير قُتل في تلك الليلة، تحديدًا لحظة انقطاع التيار الكهربائي أو بعده. هل تتذكر انقطاع التيار الكهربائي؟

- بالطبع.

- ماذا فعلت أثناء انقطاع التيار الكهربائي؟

- تخليت عن فكرة طرق باب فولتير وضربه. خرجت إلى الشارع المظلم، مشيت إلى حيث رأيت ضوءًا، على بعد عدة بنايات. عندما وصلت إلى الشارع المضاء، واصلت السير طوال الليل وأنا أتخيّل أني أقتل داليا.

- مشيت حتى الفجر؟

- حتى الفجر.

- ألم يرك أحد؟

- لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ألم تدخل إلى حانة؟

- لا.

- ألم يقدّموا لك دعوات من أجل حضور رقصة الطاولة؟

- لا، اللعنة. لا، ليس لدي عذر أيها المحقق. لا تخدعني.

رمَّش من جديد، وقبل الشتيمة هذه المرة. رموشه سوداء وطويلة تلائم حاجبيه الكثيفين. وكلاهما يظللان عينيه الساهدتين.

تابع كلامه:

- هل أخبرت داليا أن الشخص الذي تسميه فولتير سيتعرض للطعن حتى الموت؟

- أنني أتمنى له أن يموت طعنًا.

- لا أنك ستطعنه؟

- لا.

- هل تعرف سيدة اسمها مارثيلينا، أرملة ماتورانا.

- نعم، خلال حياتي كلها.

- السيدة مارثيلينا تقول إنها أخبرتك أن الشخص الذي تسميه فولتير يستحق الطعن.

- هذا صحيح.

- تقول أيضًا إنك أجبتها: الطعن لن يشفي الغليل.

- ذلك ما أجبتها.

- وأنك اتصلت بها عندما علمت بالطعن، وهنأتك على جريمتك العادلة.

- نعم، لكني أنكرت أن أكون أنا الفاعل.

- لكنها أصرّت.

- هي.

- وأنت لم تصر.

- لا توجد طريقة للإصرار على مارثيلينا أيها المحقق. هي دائمًا تكون لها الكلمة الأخيرة.

- لديك مشكلة حقيقية مع الكلمات -قال سالادريغاس- إما تكون زائدة عن اللزوم أو تنقصك أو تصبح حقيقة. -تناولَ آخر رشفة من قهوته-، والتي أصبحت الآن باردة جدًّا. من كل ما تقوله لي -قال سالادريغاس- تكمن الحقيقة، بالنسبة لي،

في التفاصيل وفي تفاصيل غَيْرتِك. أخبرني، أسألك لآخر مرة: هل قتلت أم كلّفت أحدًا بقتل الشخص الذي تسميه فولتير؟

- لا يا سالادريغاس. لا! لكن أقول لك الحقيقة: منذ يومين تعذبني فكرة إمكان كوني فعلت ذلك دون أن أتذكره، فكرة وجود أحد بداخلي قادر على فعل ذلك دون أن يتذكره، مثل السكران الذي لا يتذكر الأشياء التي فعلها البارحة، أو مثل صبيٍّ خاض مشاجرة لا يتذكر أنه انتصر فيها والتي ألحق خلالها أضرارًا جسيمة بخصمه.

حدق سالادريغاس في السقف بعد كلماتي الأخيرة ثم قال:

- كلُّ هذا يحتاج إلى تحقيق. وتوضيح الجريمة. استنتاجي المؤقت هو: أنت كاتب يتكلّم كثيرًا. أنت متورِّط. زد على ذلك أنك رجل مغرم جدًّا. لهذا السبب بالذات، أنت رجل مشبوه، قادر على فعل أيّ شيء.

- مثل ماذا؟ سألته.

- مثلًا، طعن عشيق زوجتك، العشيق نفسه الذي حطّم شهرتك الشعبية.

- يا لها من حجة من الدرجة الرابعة يا سالادريغاس.

- جرائم الحياة الواقعية مجرد حجج من الدرجة الرابعة أيها الكاتب.

أعجبني أن يسميني كاتبًا، لأن ذلك يعني في العمق أنه فهم كل شيء. ظننت أنني فهمت، في هذياني، أنه في هذا المستوى من المعركة سالادريغاس حليف بجانبي. ومثل كل المحققين الجيّدين في الروايات، سالادريغاس يكره الكتاب. لكنه أثناء استجوابي فهم أنني لست كاتبًا بالمعنى الدقيق للكلمة، بل مجنونًا، وفي كل الأحوال، مستهترًا بالكتّاب، منتحلًا. وكان هناك شيء في هذه الحالة يسعد روحه.

أكّدتُ انطباعي عندما وقف وقال لي:

– علينا الآن الذهاب إلى النيابة العامة. أنصحك: احك لهم هناك ما حدث بالنسبة لك، دون إغفال أيّ شيء. لا تنتحل شيئًا، ولو مرة واحدة، احك ما حدث.

١٢

كل هذا يتطلب تفسيرًا. هذا ما ستقرؤونه.

في الصباح الذي تحدثتُ فيه مع سالادريغاس، أخذوني إلى السجن بوصفي مشتبهًا به في طعن فولتير. أخذوني بموجب "أمر بالحضور"، أي أنني جئت بمثابة شاهد. لكنني وصلت إلى المندوبية الوزارية بصفتي "مشتبهًا به"، وهو ما يعني عمليًّا "مجرمًا". أمور تخص العدالة المحلية.

يطلقون، في العدالة المحلية، اسم المندوبية الوزارية على قاعات انتظار السجن، التي نسميها هنا نيابات عامة. مبدئيًّا تمثل النيابات العامة قوانين الأمة، لكنها في الممارسة اليومية، لا تفعل شيئًا سوى اختلاق متّهمين باسم القانون. كل شيء يتوقف على التعليمات أو اتفاق ذلك اليوم. لأن للعدالة المحلية منارتين تهتدي بهما، وهما: التدخلات والرأي العام.

الطريقة التي جعلتني بها المرأة ذات البطن المزدوج والمتلصص ذو الحاجبين المعقوفين متَّهمًا في تقريرهما،

بينما كنت أتحدث في منزلي مع سالادريغاس، تعد حرفة أدبية تتجاوز علمي. أمور تخص العدالة المحلية.

أعترف أنهما، كما قال سالادريغاس، لا يتوفران على فرضية لحل جريمة فولتير أفضل من فرضية غيرتي القاتلة. الجزء الخاص بالغيرة وتأكيد أقوالي حول الطعن مدون في تقرير المرأة مضاعفة السمنة والمعقوف الناعس باعتباره اعترافًا.

لا أريد أن أضيف وجهي المجنون وشعري الخشن، وجفنيَّ الرماديين وبشرة عينيّ الحمراء، ومناخيري التي كان يبديها محيّاي ساعة الزوال عندما وصلنا إلى النيابة العامة. فبعد يومين من عدم النوم، كانت ملامح وجهي تتهمني وتثبت اتهامي.

كانت الصحافة تغلي بالقضية. عاملتني كمجرم منذ الصباح. استيقظت مجرمًا في اليوم التالي، تمامًا كما قال سالادريغاس، وقد شرحتني تفاصيل قصة لا تُقهر: لقد تحول البيروقراطي الثقافي الكبير، أي أنا، إلى قاتل بدافع الغيرة لأعظم كاتب أدبي واعد في البلاد، أي فولتير. لست أدري كيف أصبحت أتكلم مثل "بوتشو"*، قد يكون ذلك بسبب السرقة الأدبية.

لا تعرف الصحافة شيئًا عن القصة التي حكيتها حتى الآن،

* Pocho: صفة تطلق على كل مكسيكي تبنى عادات أو طريقة تحدث سكان الولايات المتحدة الأمريكية، ويكون ذلك ناتجًا عن العيش بالقرب من حدود المكسيك والولايات المتحدة. وجاءت العبارة هنا لأنه استعمل عبارتي "meaning yo" و "meaning Voltaire" في الجملة السابقة. (المترجم)

تستعجل فقط تقديمَ الجاني ليشرح اللحظة الحرجة. أكرِّرُ أن بين يديها مادة لا يمكن تجاوزها: طعن كاتب شاب لامع، فولتير، على يد سارق أدبي تخونه زوجته، أنا، بلَّغت عنه بطلة غير متوقعة، داليا زوجتي، التي تجرأت على قول ما تعرفه، بعد أن اختارت حبًّا جديدًا في حياتها.

مزيدا من العناصر: اختارت داليا ذلك بشكل رومانسي وآسر، دون قياس العواقب، متحدّية حتى خطر التعرض للقتل بسبب دوافعه المثبتة الآن لدى زوجها، القاتل. أنا بكل وضوح.

لم أركع أمام أيّ واحد من تلك الأحداث التي يفترض أنها تحققت. عبرتها بغطرسة جليدية أكدت للجميع برودة روحي.

حرص صديقي المهندس ورئيس الجامعة -الذي لم يعد الآن صديقي، ولكن في اللحظة التي سأحيل إليها كان صديقًا لي من جديد- بأن يصلني، خلال اليوم الأول من اعتقالي الاحتياطي، كلُّ الدعم اللازم. أوَّلُه أن يضعوني في زنزانة منفصلة، لأن ما تسميه النيابات العامة "زنازين منفصلة" تتميز بعدم الفصل بين السجناء، بل بتجميعهم، لدرجة أنه يمكن أن تضم زنزانة خاصة بشخص واحد ثلاثة عشر شخصًا.

حرص المهندس ورئيس الجامعة أيضًا على ضمان اتصالي بالعالم الخارجي، لا سيما مع صديقنا المشترك مالاكياس. يبدو أن مالاكياس يعرف منذ أيام الدراسة جهاز القضاء بأكمله، بما في ذلك حراس الزنازين في السجن. وقد بلغ عطف هؤلاء

الحراس علي، والذي أوصى به مالاكياس، أنهم عرضوا علي في نفس الليلة عرضًا مذهلًا، هو أنهم يمكن أن يحضروا لي "فتاة" للاستمتاع بها. رفضت، لأنني لم أستمتع قط مع بائعات الهوى، ولم أهتم بالعيّنات التي اقترحها علي الذين أنا تحت أسرهم مستعملين كلمة "فتاة". أمور تخص اللسان المحلي.

هكذا تمكنت من الطفو في تلك الليلة، غارقًا إلى رقبتي في سجون النيابة العامة. في اليوم التالي، لم تكن لدي رغبة إلا في النوم، فنمت حتى المساء دون انقطاع، لا أسمع سوى صراخ أولئك الذين كانوا في الزنازين المجاورة، حين يستجوبونهم.

أيقظتني زيارة سالادريغاس.

- أعتقد أن الأمور بدأت تتضح -قال- لا تنتظر من هذا شيئًا كثيرًا، لأن الأمور هنا تزداد وضوحًا دائمًا، لكنها في النهاية لا تتضح. مثل الحقيقة نفسها.

ظننت أن هذا هو ما كان ينقصني في ساعتي المميتة تلك، بعد أن نمت واستيقظت مثل شخص مبارك: محققٍ فيلسوفٍ.

قلتها له:

- هذا ما كان ينقصني يا سالادريغاس، أن تصبح فيلسوفًا معي...

- أنا فيلسوف؟ ضحك سالادريغاس. لا أيها الكاتب. الفيلسوف هو قائدي تشاتانوغا. كان قائدي تشاتانوغا ينام

ويستيقظ قائلًا: "أيها السادة: الأشياء هي كما هي". وعندما لا يفهم شيئًا مما يجري، كان يضيف: "هناك أشياء واضحة وبيِّنة".

سجلت في ذاكرتي القائد تشاتانوغا.

تابع سالادريغاس:

- أظن أن كل شيء قد اتضح معك إلى حد ما، وإن كان سيتعقَّد مع الوثائق. والوثائق ملعونة، هي قانون هذه الغابة، تريد أن أحكي لك؟

طبعًا كنت أريد. حكى لي. لقد حقق بدقة في قضية فولتير، لكنه خالف بعض القواعد. مخالفاته تلك كانت، أو بدأت تكون، مشكلة الوثائق التي كان يتحدث عنها.

ركز تحرياته على بناية فولتير. طرق أبواب الشقق واحدة تلو الأخرى، يسأل عما إذا سمع أحد شيئًا ليلة الجريمة.

لم يسمع أحد أيّ شيء.

شعروا جميعًا بالرعب عندما علموا أن هذا الشيء حدث في بنايتهم. في كل الشقق فتح له أحدٌ الباب وأجابه. في كل الشقق، ما عدا الشقة المقابلة لشقة فولتير، حيث لم يفتح له أحد الباب. عاد سالادريغاس إلى الطوابق العلوية ليسأل أولئك الذين سبق أن سألهم هل يعرفون من يسكن في الشقة التي لم يجبه فيها أحد. الثرثارة التي تسكن في الطابق الثالث، نفسها التي أخبرته أن فولتير كان جارًا عظيمًا، لأنه ساعدها

ذات مرة في حمل حقائب السوبر ماركت، أخبرته أنه في الشقة المقابلة لفولتير يسكن شاب لا ينظر إليها عندما يقابلها، وينظر إلى الأرض عندما يسير في الشارع. سألها سالادريغاس عن آخر مرة رأت فيه ذلك الشاب فأخبرته أنهما التقيا عند مدخل البناية ليلة الحادثة الرهيبة.

الشيء ذاته.

نزل سالادريغاس إلى باب المستأجر الغائب لينظر في كل شيء من جديد. أمعن النظر، فرأى بقعة شوكولاتة على سجادة المدخل بدت له فيما بعد مثل قطرة دم، من هناك بحث عن المالك وحصل منه على اسم المستأجر. أخبره المالك أنه وقع على عقد الإيجار باسم كارليس أثيبيس، وأنه ممثلٌ شاب يريد أن يعطي الانطباع بأنه كتالاني دون أن يكون كذلك. آه من قدرة الملاك على كتمان الأسرار. بحث سالادريغاس عن عنوان أثيبيس على الإنترنت، واكتشف صفحته على الفايسبوك. اخترقها بمساعدة مالاكياس، وبسرعة تكونت أمامه قائمة أصدقاء أثيبيس، والأصدقاء الأكثر صداقة من غيرهم، وخاصّة واحدًا كان أثيبيس يتبادل معه الرسائل كل ساعة إلى أن توقف عن الكتابة إليه، فجأة، في اليوم الموالي لجريمة القتل.

فكر في أن عليه مقابلة ذلك الصديق، فاخترق حسابه هو أيضًا على الفايسبوك. يقطن الصديق في شقة في حي كونديسا المجاور لسان ميغيل تشابولتيبيك، حيث قُتل فولتير.

ذهب سالادريغاس وطرق الباب. عندما فتحوا له، سأل مباشرة عن كارليس أثيبيس وكأنه يعرفه. فهم صاحب المنزل ما كان يحدث، واستباقًا منه للأحداث، ذكّر سالادريغاس أنه ليس لديه الحق في اقتحام خصوصيته. الخطاب شبه القانوني الذي قاوم به المعني بالأمر أكد لسالادريغاس أنه يسير في الطريق الصحيح. لذلك أزاح المستأجرَ جانبًا ودخل الشقة، بالأبهة العنيفة لرجال الشرطة، حتى الغرفة التي كان فيها كارليس أثيبيس، جار فولتير، مختبئًا منكمشًا ومفزوعًا.

أخرج سالادريغاس من ذاكرته مهارات القائد تشاتانوغا وطبّقها على أثيبيس المنكمش.

حكى لي سالادريغاس أن القائد تشاتانوغا سبق له أن فك لغز جريمة قتل جَدَّين مشهورين. هي كانت كاتبةً وهو كان مرشّحًا سابقًا، آنذاك، لرئاسة الجمهورية. وُجِدا ذات صباح مقتولين بضربات مدية في سريرهما داخل منزلهما الفاخر في حي لاس لوماس دي تشابولتيبيك. بدأت تنتشر في الصحافة فرضيات عن أن الجريمة سياسية سببها تصفية حسابات قديمة، أو انتقام مزارعي قصب السكر، لأن الرجل العجوز كان نذلًا حقيقيًا في معاملته مع مزارعي قصب السكر خلال فترة حكمه.

تذكر سالادريغاس بسرور أن القائد تشاتانوغا قام بتفتيش المنزل بدقة، ودرس كل شيء لمدة يومين. وبعد ذلك دعا إلى اجتماع لأفراد الأسرة، بمن فيهم الأحفاد الذين كانوا يعيشون في

المنزل. أجلسهم القائد تشاتانوغا كلهم في الصالون ليطلعهم على الحكم، ثم قال لهم على غرار المحققين الاستنتاجيين العظماء، مثل شارلوك هولمز، أو المفتش كلوزو: "حسنًا أيها السادة، لقد راجعنا كل شيء، وهذه الجريمة لم تكن من الخارج، بل من الداخل".

- وبعد ذلك -قال سالادريغاس- توجه قائدي تشاتانوغا بقوته الاستنتاجية، مباشرة إلى الحفيد الذي كان جالسًا هناك وصرخ في وجهه أمام الجميع: "لقد فعلتها أنت أيها الفتى الوغد! لقد قتلت جدَّيْك، أنت! قل لعائلتك مرة واحدة وإلى الأبد أنك أنت أيها الفتى الأحمق من فعلها، أيها الوغد القاتل". فأجهش الفتى بالبكاء ثكلانَ، واعترف بجريمته.

تابع سالادريغاس:

- عندما كنت أمام كارليس أثيبيس، وهو ملفوف في غرفة صديقه، تذكرت القائد تشاتانوغا، فقلت لكارليس أثيبيس: "أنت قتلت جارك العبقري أيها الوغد. قتلته في مشاجرة ثم طعنته وشوهته بعد أن مات". كان في أثيبيس خدش على حاجبه وكدمة خلف عينه اليمنى. كان مغطّى حتى أقفال اليدين برداء حمام، فارتميت فوقه وعريت جذعه. انطوى من الألم. ظهر جرحا سكين على ذراعيه وبعض الرضوض على صدره الأيسر، جراء المشاجرة الشرسة التي خاضها مع جاره العبقري، قبل أن يسيطر عليه ويقتله. قلت لمالك الشقة: "أنت تحمي

قاتلًا أيها الوغد. هذا الحقير قتل كاتبًا أمس الأول، في عمارته، بعد شجار معه. لذلك يعاني من الجروح التي تراها". الحامي -الذي ظل شاحبًا- لم يقل شيئًا، لأن دخولي عليه كان مثل العاصفة. أجهش المنكمش بالبكاء واعترف بجريمته. انحنيت للقائد تشاتانوغا، متذكّرا أنه مات قبل سنوات، وعلى جسده اثنتا عشرة رصاصة. ثم قلت للمنكمش حتى يسمعه حاميه: "لقد قتلت العبقري غارثيا كوندي أيها الوغد". ثم قدمت لهم روايتي الأولى للظروف المحيطة بالقتل، وهي الرواية المهمة أمام القانون.

- وما الظروف المحيطة به؟ سألته. لماذا قتل المنكمش جاره فولتير؟

- لنفس سبب رغبتك في قتل فولتير الكاتب. بدافع الغيرة. كان أثيبيس مغرمًا بفولتير لعدة أشهر، وقد قَبِلَه فولتير على الأقل مرة واحدة.

- من أين تأتي بهذا يا سالادريغاس؟

- من فم الخيل! قاله القاتل نفسه!

- ماذا قال؟

- أن فولتير قد خانه.

- هل كان فولتير مثليًّا؟

- دعنا نقول فقط أنه كان رجلًا من كلا العالمين.

شعرت بالمرارة بعد معرفتي بشأن الإيروس المتعدد لفولتير. وبأن داليا، داليا التي كانت لي سابقًا، قد تكون مجرد مبتدئة في فتح أبوابها المزدوجة لممارسة الحب.

سألته منحني الرأس:

- كيف هي تتمة الظروف المحيطة بالحادث؟

- حسنًا، عندما رأى أثيبيس وصول زوجتك في تلك الليلة، زوجتك الغالية، مع كل الاحترام الواجب، ودخولها شقة فولتير لتتسلى معه، احترق غيرةً. بعد ثلاث ساعات، عندما عاد فولتير من الباب بعد أن أوصل زوجتك، خرج أثيبيس، الجار/ العاشق الذي تمت خيانته، يطالبه وهوغارق في البكاء. قال له فولتير أنه يبكي مثل مخنث. تشاتما، ثم من الشتم انتقلا إلى الضرب. هجم أثيبيس مدعومًا بغضبه. رفضهُ الذي تسميه فولتير كما يُرفض مجنون؛ ضربه المجنون ورد عليه فولتير. دخلا شقة فولتير يتقاتلان. أخذ المجنون سكينًا من طبق الجبن الذي بعثرته داليا وفولتير للتو أثناء عجلتهما، مع كل الاحترام الواجب. بهذا السكين أعطى الضربة الأولى لفولتير في وجهه. آلمت الضربة فولتير وألهبت غضبه، لكنها على الخصوص صرفت انتباهه. تلقى فولتير الضربة الثانية في صدره. الثالثة في عنقه. الرابعة من جنبه. لم تتوغل أية ضربة من هذه الضربات في جسده، ولم يكن أيّ منها مميتًا. هذا الأمر مدد المعركة إلى

أن فقد فولتير قوته، بسبب تراكم جروح الطعنات، وأصبح لا يقوى على شيء أمام المجنون. فاستمر المجنون يطعنه في كل أجنابه. أحيانًا بالسكين في يده اليسرى، وأخرى في اليمنى. وفي الأخير طعن الأعضاء التناسلية لفولتير، الأعضاء التناسلية التي خانته.

آه، سبينوزا. كنت أود أن أفكر، لكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالتفكير. كنت في وضع الشعور بمزيد من المرارة عندما أدركت أن فولتير قد قُتل بسبب شخصيته الكاريزمية. وفي حالة الفتى الذي كان يحبه، بسبب كارزميّة أعضائه التناسلية.

تابع سالادريغاس:

- كان فولتير أضعف من عاشقه، وانتهى به الأمر بأن طُعن من قِبل جاره في أوج جريمة عاطفية. هذا ليس شيئًا خطيرًا أيها الكاتب، ولا شيئًا مميزًا لدينا نحن رجال الشرطة الذين نصل إلى مكان الجريمة عندما يكون الأسوأ قد حدث. طَعْنُ فولتير هو ما كنت ستفعله، ربما، لو لم تنقطع الكهرباء في تلك الليلة وتمكنت من الدخول إلى عمارته. لكن سيكون عليك أن تكون قويًّا مثل كارليس أثيبيس، الذي كان قصيرًا ونحيفًا، لكن أيضًا صلبًا مثل عصا ومثينًّا مثل سلك. لو قفز عليَّ كارليس أسيبيس عندما اكتشفته، بدلًا من أن يستسلم، لأرداني ربما مثل فولتير. لكنه كان ضائعًا بين الشعور بالذنب والحزن، ضائعًا

بسبب الحب الضائع، أخذَتْ منه الغَيْرة أغلى شيء يحبه في هذه الحياة، وعلى يديه. الحب وغد، أيها الكاتب.

الوغد هو سالادريغاس، فكرتُ، لكنه وغد في مصلحتي في تلك اللحظة. تماثلْنا أنا وهو بعدة طرق، منذ الوهلة الأولى. والآن ها هو يُحضر قاتل فولتير إلى مكتب المدعي العام، رغم أنف محامي فولتير الذكيّ للغاية، الذي طعن في القضية، واستأنف ضد جميع الانتهاكات القانونية التي وقع فيها سالادريغاس. سالادريغاس الآن متهم بالشطط في استغلال الشرطة.

لذلك قال لي:

- يجب أن أخبر عرَّابي بكل هذا، حتى لا يخدعوني في المحاكمة.

سألته من هو عرابه.

قال لي بإيجاز:

- نفس عراب صديقك رئيس الجامعة.

سالادريغاس رجل عظيم.

١٣

كل سطر مكتوب أعلاه يخفي قصة صغيرة،
والسطر الأخيرُ الخاتمةَ. وقد حاولت أن أحكي
النهاية بدون لف ولا ابتذال.

خرجت من السجن في اليوم الثالث من دخولي إليه. أضاف سالادريغاس معطىً حاسمًا آخر إلى تحقيقه حول فولتير: أداة القتل.

احتفظ أثيبيس، كتذكار، بقطَّاعة الجبن ذات الرأسين التي جرح بها فولتير أولًا ثم طعنه. استعادها سالادريغاس أثناء عملية تفتيش ثانية غير قانونية لمنزل صديق أثيبيس، والتي رفضها الصديق، بحق لكن دون جدوى، باعتبارها انتهاكًا ثانيًا لحقوقه.

تعسَّفَ سالادريغاس على حقوقه مثل المرة الأولى واكتشف ما يلي: في حقيبة الظهر التي أحضرها أثيبيس إلى منزل صديقه، ليلة انقطاع التيار الكهربائي التي قُتِل فيها فولتير، كان يحمل منديلًا من قماش لفَّه حول جسده مثل طفل رضيع،

وبداخله قطاعة الجبن التي ينطبق رأسها المزدوج تمامًا مع مداخل جروح فولتير. وتبين أن الدم المتخثر على نصلها، بعد فحص الطب الشرعي، هو دم فولتير المتخثر.

لم يكن لديّ متسعٌ من الوقت للتفكير في هذا، ولا في أيّ من الأشياء الأخرى التي ساعدت على إطلاق سراحي، إذ إنه بمجرد ما أعادوا لي هاتفي المحمول، رأيت قائمة مكالمات ضائعة من مارثيلينا. استمعت إلى رسائلها الصوتية القلقة. "إنني أموت"، واحد. "إنني أموت بدونك"، اثنان.

كانت تعاني من انتفاخ الرئة منذ يوم اعتقالي. انطلقتُ إلى منزلها الريفي مُذ سمعتُ رسالتها الأولى، واستمريت أسمع الرسائل الأخرى. كلها متشابهة ومختلفة، حشرجات موت. اتصلت بهاتفها طبعًا، لكن لم يجبني أحد. اتصلت بالمنزل الذي يحتمل أن تكون فيه خادمتها، وكانت بالكاد تتحدث الإسبانية وتخاف كثيرًا من الهواتف، لكنها لم تجب أيضًا. تحدثت، في الأخير، مع السائق الذي كان يجيء ويذهب بالأدوية إلى المزرعة. وهو الذي أخبرني، أخيرًا، أن مارثيلينا ترقد فاقدة الوعي منذ أربع وعشرين ساعة، في غرفة العناية المركزة بالمستشفى العمومي في المدينة المجاورة.

قطعت المسافة في سيارتي، أقودها بنفسي، راغبًا في أن أصطدم بشيء، نحو المستشفى في المدينة المجاورة لمنزل مارثيلينا الريفي. عندما وصلت كانت قد ماتت، ماتت للتو. أزالوا جثتها لتترك السرير لموت آخر، ثم أرسلوها إلى

المشرحة، في قبو المبنى. لحقتها هناك قبل أن ينفذوا فيها الحرق الذي طلبته هي بنفسها. فتحوا لي درج المجمِّد الذي كانت فيه فرأيت وجهها العجوز الرصين والهادئ. ما زالت حواجبها كثيفة، حواجبها السوداء الجميلة، واستعادت شفتاها شبابهما، تمامًا مثل جبهتها وكأنها لم تذق أثر الزمن. وضعت شفتي على خدّيها، لكنني تقززت من البرودة، دليل الوفاة.

أمضت الفتاة التي كانت تعتني بها في المنزل الريفي يومًا كاملًا جالسة في غرفة الزيارات بالمستشفى، نظرتها مثبتة على الأرض، وظهرها ملفوف في دثار. ضفائر شعرها سوداء قوية وأسنانها بيضاء مشعة لم أر مثلها قط. كانت تمسك حزمة من الأوراق، كمن يمسك بآخر ما تبقى له.

- ماتت سيدتك مارثيلينا بسلام -قالت لي- اتصلت في الليل وقالت: "أظن أنني أحتضر". أغلقت عينيها ولا شيء بعد. وقبل أيام، أعطتني هذا، ومدت لي حزمة الأوراق. قالت السيدة مارثيلينا: "اعطيها له من يدك إلى يده حتى لو كنت تموتين". لاحظت أنها كذلك كانت تتكلم. هل رأيت يا سيدي أني وفيت بالوعد؟

اغرورقت عيناها بالدموع عندما أخذتُ الحزمة من يديها، لكنها لم تُسقط قطرة واحدة.

سألتها ما إذا أكلت شيئًا. فقالت لا. أخذتها إلى مطعم المستشفى. طلبَتْ كاساديَّات قليلة، فأضفتُ إليها بيضًا مخفوقًا

وفاصوليا مقلية. التهمَتْ ذلك كله، دون أن ترفع بصرها، ببطء لكن بدون توقف، وأثناء ذلك فتحتُ حزمة الأوراق التي كتبَتْ عليها مارثيلينا على طريقة "بالمر" اسمي، كاملًا، مع اسمي العائلي المزدوج، بخط يدها البطيء والمحب.

نسيت كل شيء. كانت نسخة من وصيتها. بدأت عيناي تتبللان، ورقبتي تنغلق، قبل أن أتأكد مما كنت أتخيله، قبل أن أصل إلى فقرة الوصية التي يظهر فيها اسمي، ظافرًا، وحيدًا، بصفتي وريثًا عالميًا.

لم أركز على التفاصيل. ذهبت جريًا إلى إدارة المستشفى لأُعرِّف بنفسي وأؤكد بحزمة الأوراق بأني قادر قانونيًا على التكفل بجسد مارثيلينا وجنازتها. سبق أن مُنعت من ذلك عند وصولي. وكنت بدأت إجراءات إخلاء مسؤولية كان يديرها عن بعد مالاكياس الغالي. لكنها لم تعد ضرورية.

بدأ حرق الجثة في الواحدة بعد الظهر. سلّموني رماد مارثيلينا في الساعة الرابعة في صندوق مطلي بالفضة اشتريته من أشهر بائع معدّات جنائز في المدينة.

في السادسة مساءً، عدت مع الفتاة والرماد إلى المنزل الريفي. أحضرت لي الفتاة الويسكي الذي كانت مارثيلينا تأمر به كلما زرتها، وسألتني هل تناولت العشاء. قالت:

- لدي طبق من تلاكويوس وأشياء مماثلة.

طلبتُ تلاكويوس، ووضعت الصندوق برماد مارثيلينا على

جانبي الأيمن، على مكتبها، وجلست لأقرأ الوصية. يا لها من كتابة! كنت أقرأ وأضحك مستغربًا وغير مصدق لما أقرأه.

آه يا مارثيلينا! كم أنت دقيقة وبعيدة النظر!

باختصار، حين جلستُ على المكتب بجانب الرماد كنت نتنًا ومنبوذًا، ولما نهضت أصبحت معافى وذا مالٍ.

كانت مارثيلينا تملك ثلاثة حسابات جارية، وحسابين مصرفيين، ولوحات تشكيلية في منزلها الريفي، منها لوحة لروفينو تامايو، ومنزلها الريفي الذي يساوي أكثر من لوحة تامايو، والصندوق الاستئماني لجائزة مارتين لويس غوثمان، من الكتَّاب إلى الكتَّاب، الذي يضم مكونين: مبلغ الجائزة نفسه، المنخفضة قيمته الأصلية بشكل كبير، وصندوق بالفوائد المتراكمة المطبقة على إصدار الجائزة الممتد لسنتين.

حوالي الساعة التاسعة ليلًا، عندما تناولت النصف من زجاجة الويسكي، جاءت الفتاة بالتلاكويوس، حينذاك انتابتني أول نوبة من نوبات الأثرياء الجدد.

سألتها كم تتقاضى. أخبرتني بالمبلغ وأجبتها دون أن أسمعها جيدًا:

- هذا المبلغ الذي قلته هو الذي ستحصلين عليه كل شهر، بقية أيامك، مكافأة لك على اعتنائك بهذا الشكل بمارثيلينا.

جعلتها الإثارة تستدير وتعود إلى المطبخ.

استيقظت قبل الفجر صافي الذهن ومنتعشًا في منزل مارثيلينا الريفي.

اتصلت بالموثق في أول ساعة عمل.

- علينا توثيق كل هذا -قال لي- كلما أسرعنا كان أفضل، عليك أن تراقب الحسابات فورًا. افهم هذا: لقد انتقلت من لا أحد إلى زبون جيّد. زبون ينبغي العناية به.

أثناء إجراءات تحويل الحسابات استقبلني مديرو البنك والبورصة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

علمت أن في المكسيك أثرياء لم يكونوا أثرياء للغاية، وأنني أصبحت الآن أحد هؤلاء الأثرياء المجهولين، إلا أنه، في حالتي، كل شيء آخر عني ليس سوى بؤسٍ، فضيحة عمومية: باعتباري سارقًا أدبيًّا ثابتًا، وقاتلًا محتملًا، وسفّاحًا فاشلًا.

أثار محامو كارليس أثيبيس التشويش اللازم جراء انتهاكات المحاكمة القانونية، التي وقع فيها سالادريغاس لكي يتم اعتقاله. قدموا ملفًا سمينًا بغية اتهامه وإطلاق سراح أثيبيس، مقابل متابعتي أنا. أُغلق ملفي القضائي، وإن لم يغلق ملف شهرتي العمومية التي استمرت في مسيرتها الملتبسة، والتي لا هوادة فيها.

بعد ستة أشهر من حدوث كل هذا، ما يزال هناك من يتهمني في الصحافة بأني مرتكب جريمة قتل فولتير، أو القاتل

الحقيقي لفولتير الذي أُطلق سراحه باستعمال النفوذ، مما يعني -كما يضيفون هنا وهناك- أنني لم أقتل فولتير فقط، بل قتلت أعظم كاتب واعد في الأدب المكسيكي، أي أنني أكاد أكون قاتل مستقبل الأدب.

أنا بالذات.

خلال تلك المرحلة الانتقالية التي كانت سعيدة ورهيبة، والتي كنت فيها ثريًّا في الخفاء ومنبوذًا في العلن، وطيلة الأيام التي استمرّ فيها التدمير المطلق لشهرتي، لم يتعاطف معي سوى شخصين اثنين، هما: موثّقي، الذي كان يوثق ممتلكاتي، وسالادريغاس الذي أصبح مرتبطًا بي. هذه أمور تخص التواطؤ المحلي.

كان سالادريغاس يعلم أني لم أقتل فولتير، وكنت أعلم أنه لم يكن شرطيًّا جنائيًّا، هذه يقينات متبادلة كان من الصعب تحقيقها في البلد آنذاك، إذ أننا نكون جميعًا، بطريقة ما، متّهمين قبل أن نكون مشتبهًا بهم.

قدم لي الموثق مستندات الملكية. وأعدَّ لي سالادريغاس شيئًا أفضل: يريد أن يتعاقد معي لأكتب حكاياته.

- أعلم أنه لا يهمك أيها الكاتب أن تروي حكايات حقيقية. ما يهمك هو نقل حكايات رواها آخرون. لكني أقدّم لك نصيحة: كفاك من النقل، احْكِ ما يقع. ما وقع لك. احكه كما حكيتَهُ لي. ثم اكتب ما أستطيع أن أحكي لك أنه حدث لي.

- وبعد ذلك؟ سألته.

- حسنًا، بعد ذلك، بعد أن تسترجع مصداقيتك، استمر في فعل ما تشاء، سر على الديدن الذي أنت عليه واستمرَّ في الركوب على حكايات الآخرين.

- هل من فكرة لكي أستمر على هذا الطريق؟ سألته.

- ليست فكرة. أنا أحمل لك هدية؛ هناك على الطاولة عند مدخل منزلك دفتران مخطوطان وجدتهما في شقة الذي تسميه فولتير.

- دفتران؟

- اثنان أيها الكاتب. وبخط صغير جدًّا. أكاد أجزم أن هذين الدفترين يحملان ضعف وزنهما. بدأت قراءتهما، لكنهما لم يثيرا اهتمامي. أما أنت المعجب به كثيرًا، فربما تهتم بهما. وقد أحضرتهما لك لعلك ترغب في مواصلة النقل والانتحال، والآن بدون شهود. تنقل ما يوجد فيهما وتسترجع شهرتك المزيفة، مع فارق أن الآن لا أحد يستطيع أن يكشف أمرك، ما دام أنه لا يوجد أصل للمقارنة معه.

- ليست هذه هي السرقة الأدبيّة التي تهمّني -قلت- حرفتي تتطلب نسخة أصلية.

- وما أقدمه لك نسخة أصلية أيها الكاتب. نسخة أصلية لتنقل منها. كما أعرض عليك حكاياتي لتنسخها. إذا كانت هذه

هي الطريقة التي تريد أن ترى بها الأمر وهذا ما يثيرك، فانقل حكاياتي. أعتقد أننا سنصبح أغنياء، لأن كل ما يتم نشره عن الشرطة في هذا البلد يشبه ما تنقله أنت من كتّاب آخرين. إنه قابل للتصديق لكنه ليس حقيقيًا. هل تفهمني؟ مختلف تمامًا عن حكايتك التي عالجناها معًا: إنها غير قابلة للتصديق، لكنها حقيقيّة.

حينذاك وجد سالادريغاس لحظته الأدبيّة العظيمة في المحادثة، محادثة بقدرما كانت متواضعة، كانت غير عملية، فقال:

- دعك من الكذب أيها الكاتب، وقل الحقيقة. إن حقيقتك أكبر بكثير مما نقلته بأسلوبك الشاذ في الانتحال. أنا صديقك. دعني أقول الحقيقة ونعقد صفقة مربحة ونقسم أرباحها بيننا بالتساوي.

سالادريغاس رجل عظيم.

ينتظرني دفترا فولتير على مكتبي. لم أتفحصهما. قد أفعل. أولا، سأحكي هذه القصة، والتي لأول مرة في حياتي لم أسرقها من أيّ أحد، بل من نفسي، أنا الذي في أساسي مجرد سارق أدبي. لذلك، لذلك...

احفروا، أيها الأوغاد، وسوف تجدون!

أنتهي هنا، رغم أن لا شيء ينتهي.

أضيف شيئًا قليلا:

ستقولون إن لهذه الرواية نهاية لا تليق بها، لكن هذا لا يمس حقائقها الأساسية، لأن النهاية التي أقدّمها الآن ليست اختراعًا. ليس كذلك، على الأقل، بالمعنى التافه لدى العديد من المؤلفين الذين يؤكدون أن الخيال وحده هو الذي يمكن أن يصل إلى الواقع. فيما يتعلق بالحبكات، فإن الواقع، بالطبع، يتجاوز الخيال بكثير، حتى ولو لم يكن ذلك إلا بالإفراط في تخييله. إن أيْسر حبكة من الواقع تعد صعبة المنال أمام كاتب الخيال الأكثر هذيانًا.

من يكون بلزاك أمام تاريخ المجتمع الذي قرر تصويره. بديلٌ، نسخةٌ رديئة، غير دقيقة في كل لوحة صغيرة، ضئيلة بالنظر إلى حجم الجدارية.

إنه مثل صاحب زورق يجدف في المحيط ويعتقد أنه يقلده. الكُتَّابُ مجرد نسَّاخٍ ينقُلون ما يرونه من انعكاسات الأشياء، إنهم مثل رسم للحوت أمام الحوت الحقيقي، إنهم بمثابة وصف بارد لفعل إجرامي حقيقيٍّ ووحشي.

أقول في النهاية: بمثابة الشيطان مع الأدب، لا معنى له سوى في صالون بيت تثيرُ فيه القرَّاءَ نسخة الحوت ونسخة الجريمة.

أقول، لأختم، أكثر أبيات فولتير غموضًا التي وجدتها في الدفترين اللذين أعطانيهما سالادريغاس. (لاحظوا أنني

أتناقض مع نفسي هنا لأني لم ألمس الدفترين).

ما أقوله هو بيت باللغة الإنجليزية، أجد صعوبة في ترجمته نظرًا لوزنه الأصيل وإيقاعه الغريب. يقول:

Nothing ahead —some
Flowering, some
Bitterness, and death

وبعد هذا، الذي ليس ذا قيمة كبيرة لا في أصالته ولا قافيته، لكنه لا يبدو سيئًا، انتهى به الأمر إلى أن أصبح سيرة ذاتية متقنة:

أنا الآن من لم أكنهُ ولن أكونه،
بل إني كائن كذلك، شخص يعيش
وهو لا يفهم أنه يحتضر.

مالينالكو، ١٦ سبتمبر ٢٠١٤.
في منزل مارثيلينا ماتورانا الريفي.

حاشية ٢٠١٨

نشرتُ السرقة الأدبيّة ربيع سنة ٢٠١٥، بعد عدة مشاورات مع محامين حول التكلفة المحتملة للتلميحات التي يتضمنها الكتاب. بحلول الخريف، بِعت بضعة آلاف من النسخ، وأصبحت أكثر الكتاب من جيلي كرهًا وقراءة وتعرضًا للانتقاد (لفترة قصيرة). وسط تلك الأنواع من الشهرة التي كانت تتصارع عليّ، تفتحتُ ككاتب أصلي، أنا الذي لست سوى منتحل؛ وكأصدق التذكاريين، أنا، الكذاب المحترف.

تَلت ذلك مبيعات أخرى، وبعض الترجمات، وبعض التلاخيص حول الأدب والانتحال، ثم جائزة، وبعض المبيعات الأخرى.

أنهى صديقي المهندس ورئيس الجامعة، الذي لم يعُد الآن صديقي، مدة اعتماده الثانية دون عناء ولا مجد. ترك منصب رئيس الجامعة للمرشح الذي لم يكن يحبه كثيرًا ولا هو أحبه. اكتشف أن معظم أصدقائه كانوا أصدقاء منصبه. أصيب بنوبة قلبية ذات يوم أفرط فيه في ممارسة الرياضة، في محاولة

لإطالة فترة شبابه. ثم حدث له أمر غير عادي: أصبح ثريًّا. استغل العلاقات التي نسجها وهو في الجامعة، والتي، ينبغي أن أقولها، لم يَحلُبها ماليًّا قط عندما كان رئيسًا للجامعة، فدأب يبتكر مشاريع جعلت منه، في الأخير، ما لم يكن يريده قط: رجلًا ثريًّا، واحدًا من أولئك الذين يرون ثروتهم تزداد نموًّا مع أن نشاطهم يقل. لا أستطيع أن أقول إن مستقبله يزعجني، وأنني مستاء من حسن حظه. أقول، على العكس من ذلك، أنه ربّما تأخر في اكتشاف موهبته وأن موهبته ناقصة، بمعنى أنها بحجمه، ولكن مع المال.

داليا، زوجتي الجميلة، التي أحببتها بشغف دون أن أعرف درجة حبّي لها، وجدَت شريكًا وتزوجت من جديد وأنجبت ابنًا وهي سعيدة. وتمديدًا لحياتها العاطفية الحقيقية، أنجزت طبعة نقدية ذكية -وبكثير من الحب والعناية- للعمل المبتور لفولتير. آلمني ذلك في حينه، مثلما آلمني أنها كانت معه ليلة الجريمة. اكتشفت في طبعتها الشهيرة لكتب فولتير غير المنشورة، أن جزءًا على الأقل من الدفترين اللذين أعطاني إياهما سالادريغاس كانا بين يدي داليا، مما يعني أن فولتير قد دخل فيها بما يكفي لتسويغ غيرتي، وأنه وجد أنها، بحكم كونها امرأة ذكية، قادرة على أن تكون المتواطئة الأدبيّة معه، شريكته الحقيقية. كانت أرملة شريفة ووفية لذكرى فولتير، الأمر الذي يزيد من ألمي، لكنه لا يعذبني. أفتقد قربها، لكنني أستحق نسيانها.

موت فولتير المفاجئ وموهبته الثابتة، منحاه تعاطفًا عالميًّا، واعتُبر كلاسيكيًّا معاصرًا. أما أنا فاعتبرت ملاحظة بوليسية في تاريخه الأدبي. أستحقها ولا أستحقها، لكني أعتقد أنني أستطيع أن أقول إن الأمر لا يهمّني. بين يديَّ وقرأت بعناية، على الأقل مرتين، الدفترين اللذين أعطاني إياهما سالادريغاس. فيهما الكثير مما يمكن تحسينه بقراءة واحدة من أجل أحد أفعالي التناصّية السابقة، مع امتياز كوني، كما يقول سالادريغاس، هذه المرة أنا حر ولا يوجد أصل يمكن المقارنة معه.

أعترف بغوايتي مرة واحدة وأؤكدها كل مرة، مرارًا وتكرارًا، كلما دارت أسئلة الصحفيين حول علاقتي التي ما زالت غامضة وقابلة للنقاش مع فولتير، الذي أُثني عليه في كل مرّة باعتباره رائد الأدب المكسيكي الواعد، وباعتباره يجّسد الأسطورة الصامدة للعبقري المنهار، والذي أحبطته شوائب الحياة. فولتير الثاني شخصيةٌ أفضل من الأول، والأول كاتبٌ أفضل من الثاني. ولكن -كما يقول الكوبيون- الموتى إلى الحفرة والأحياء إلى الكعكة، وهو مَثَلٌ من الأفضل عدم تفسيره.

تختلف أحداث الحياة عن أحداث الأدب. أعتقد أن هذا قد اتضح في هذه الصفحات، وفي ما أحكيه الآن:

في ١٨ أكتوبر ٢٠١٧، كنت مارًّا ببرشلونة في اتجاه أحد تلك الملتقيات التي كنت أحكي فيها أفعالي الشريرة دون أن أموهها من أجل إضحاك الجمهور، فاشتعلت فجأة بين

الحضور النظرة البركانية لطبيبة الأسنان سوسانا رانكابينو. مرت خمسة عشر سنة على آخر تعامل بيننا. كانت آنذاك في الرابعة والخمسين من عمرها وكنت في الخمسين، لكن سمرتها المتألقة والمتعرجة والتي حافظت عليها كانت شيئًا لا يصدق. في تلك الليلة نفسها، نمنا معًا في سرير كينغ بوكس بالجناح الرئيسي الذي يخصصه لي الناشرون، وشربنا الشمبانيا تحت الأغطية وضحكت مثل مجنونة عن حكاية سرقاتي الأدبيّة التي لا حكاية لها.

– أنا لم أهتم قط بأنك أيها الفظ، انتحلت دون كيخوته أو بروست. كل ما كان يثير اهتمامي ولا يزال هي جسور أسنانك، وما سأجنيه من رقبتك حتى نهاية أنابيبك، واللذة التي يحققها لي ما يتدفق من الأنبوب أيها الفظ.

لم يعد يتدفق منه الكثير، لكن هذا ما قالته لي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مالينالكو، ٢٣ ديسمبر ٢٠١٨.

في منزل مارثيلينا ماتورانا الريفي.

سرقة أدبية

إيكتور أغيلار كامين

أُعلن يوم الاثنين عن فوزه بجائزة أدبية. واتُهم يوم الثلاثاء بسرقة بعض المقالات الصحفية، ثم اتهم يوم الخميس بسرقة موضوع الرواية التي فازت بالجائزة .

في يوم الاثنين التالي، وقّع تسعة وسبعون كاتباً على خطاب يطالبونه بإعادة الجائزة والاستقالة من منصبه الجامعي حيث أسس إمبراطوريته الصغيرة. في الأربعاء، رفض الجائزة واستقال. في نفس اليوم علم أن زوجته كانت على اتصال بالرجل الذي يدير الحملة ضده.

في الأسبوع الذي يليه، استمع إلى تسجيل لمكالمة هاتفية بين زوجته ومنافسه. في ذلك الخميس، تم العثور على خصمه مطعونًا حتى الموت، وتلقى يوم الجمعة زيارة من الشرطة. بطبيعة الحال، كلٌّ هذا يتطلّب تفسيراً.

هذه الرواية تفسر لعبة المرايا التي تدور حول السرقة الأدبية، والحسد، والغيرة، والمصادفة، والموت... والشرطة.